وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة محمد خيضر –بسكرة–

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

السجال في أدب الجاحظ دراسة في الأشكال والوظائف

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الآداب واللغة العربية

تخصص:أدب عربي قديم

إعداد الطالبة:

نورة بوخيار

إشراف الدكتور:

جمال مباركي

السنة الجامعية:

1436/1435هـ

2015/2014م

الشكر والتقدير

أتوجه بالشكر و الامتنان إلى من أعانني على شق طريقي في هذا البحث و أفادني بنصائحه الثمينة الغالية الأستاذ الفاضل "جمال مباركي"

مقـــــــدمـــــــة

يعد السجال مظهرًا من المظاهر القولية المميزة للخطاب و تفاعلاته، وقد تنوعت مجالاته واختلفت، وانتشرت في أجزاء كثيرة من عيون تراثنا الفكري عامة والأدبي خاصة، فمثل مدونة ضخمة جديرة بالبحث و الدراسة، مما يدل على أهمية هذا الفن في الأدب العربي القديم، حيث شغل كثيرا من مدونات الأدباء كتابا وشعراء، وتفرع أشكالا وتلون موضوعات وأغراضا، واختلف مقاما وسياقا.

ويعد الجاحظ مؤسسا ومنظرًا له في جل أماته ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات:

- ما مفهوم السجال؟
- وما تجلياته في النثر العربي القديم عموما وفي أدب الجاحظ خصوصا؟
- ما أشكاله في نثر الجاحظ، وما وظائفه؟

وتقف وراء اختيارنا لهذا الموضوع عدة أسباب منها:

إن السجال لم يلق عناية كبيرة من الدارسين إلا ما ندر والخوض في غمار هذا الفن حب، البحث والتنقيب في أهم أمات العربية لكتب الجاحظ.

وقد رسمنا هيكلا رأيناه مناسبا لهذا الموضوع، يتكون من مدخل موسوم بـ : السجال المناظرة والحجاج فضاء المفاهيم، عرضنا فيه مفهوم السجال لغة واصطلاحا والفرق بين المناظرة والحجاج والجدال والسجا ل، ثم السجال في التراث الأدب العربي القديم.

أما الفصل الأول فجاء موسوما بـ : أشكال السجال في أدب الجاحظ وهي منازعة الخصوم، ومناظرة الأكفاء البلغاء، ثم مفاوضة الإخوان.

أما الفصل الثاني جاء تحت عنوان وظائف السجال في أدب الجاحظ، أبرزنا فيه الوظيفة الأجناسية، والوظيفة الإقناعية، ثم الوظيفة الأديولوجية.

و خاتمة عرضنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها، و ملحق بالتعريف بالجاحظ.

أما المنهج المتبع فكان المنهج الوصفي وآلية التحليل في تتبع وتحليل الشواهد المعتمدة لظاهرة السجال في أدب الجاحظ.

وقد استعنا بمجموعة من المصادر والمراجع أهمها كتب الجاحظ البيان والتبيين، والحيوان، والبخلاء، والرسائل الكلامية . أما المراجع فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية لأحمد باشا العيادي، وكتاب الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، رسائله نموذجا لعلي محمد علي سلمان، كما اعتمدت على بعض المقالات في مجالات محكمة كمجلة الأزمنة الحديثة، ومجلة عالم الفكر، واستفدنا كثيرا من رسالة دكتوراه العلوم لأستاذة جغام ليلى «الحجاج في البيان و التبين للجاحظ».

ومن طبيعة البحث أن تواجهه عقبات تحول دون الوصول إلى الهدف المنشود، منها قلة المصادر والدراسات المنظرة للسجال، تداخل و تشابك في بعض الأشكال السجالية، ووجود بعض الإشارات المبثوثة في بعض ثنايا الكتب تمر على المصطلح مرور الكرام، لكن بالمثابرة و السهاد من أجل العلم حاولنا التغلب على معظمها.

ولايسعنا في الختام إلّا أن نتقدم بجزيل الشكر لأستاذنا الفاضل الدكتور "جمال مباركي" الذي دأب على مساعدتنا من أجل إتمام هذا العمل وإخراجه في أحسن حلة، كما نشكر أساتذتنا الكرام كل باسمه على فتح باب المعرفة لنا.

المدخل: السجال المناظرة و المناظرة

الحجاج في فضاء المفاهيم

1/ تعريف

أ-لغة

ب-اصطلاحا

2/ المناظرة و الحجاج والجدال تداخل المفاهيم

3/ السجال في التراث الأدب العربي

مدخل: السجال المناظرة الحجاج –فضاء المفاهيم

1.تعريف السجال:

أ- لغة:

ورد في لسان العرب: سَاجَلَ الرَّجُلُ بَارَاهُ وأَصْلُهُ في الِاسْتِقَاءِ وهما يَتَسَاجَلَانِ، والمُسَاجَلَةُ: المُفَاخَرَةُ بأن يَصْنَعَ مِثْلَ صَنِيعِهِ في الْجَرْيِ أو السَّقْيِ، قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلْ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَلْوَ إِلَى عَقْدِ الكِرَبِ

فأصل المُسَاجَلَةُ: أنْ يَسْتَقِي سَاقِيَانِ فَيَخْرُجَ كُلُ وَاحِدٍ منهما في سَجْلِهِ مثلما يَخْرُجُ الآخَرُ، فأيهما نَكَلَ فَقَدْ غَلِبَ، فضربته العرب مثلا للمُفَاخَرَةِ، فإذا قِيلَ فُلَانٌ يُسَاجِلُ فُلَانًا فمعناه أنه يُخْرِجُ من الشَّرَفِ مثل ما يُخْرِجُهُ الآخَر ُفَأَيُّهُمَا نَكَلَ فَقَدْ غَلِبَ وتَسَاجَلُوا: تَفَاخَرُوا ومنه قَوْلُهُمْ الْحَرْبُ سِجَالٌ، وانْسَجَلَ الْمَاءُ انْسِجَالًا اِذَا انْصَبَّ قَالَ ذُو الرِمَّةُ:

أَوْ أَرْدَفَتْ الذَرَاعَ لَهَا بِعَيْنٍ سَجُومٍ الَمَاءُفَانْسَجَلَ انْسِجَالًا

وسَجَلْتُ الَمَاءَ فَانْسَجَلَ أَيْ صَبَبْتُهُ فَانْصَب وأَسْجَلْتُ الحَوْض مَلَأْتُهُ.[1]

السجال عند ابن منظور يحيل على معنى المشاركة في الفعل، والتباري في الاستقاء، كما تضمن دلالة أخرى وهي المفاخرة التي ارتبطت بالتنافس والحرب.

كما جاء مصطلح السجال في قاموس محيط المحيط للبستاني غير بعيد عن المعنى الذي جاء به ابن منظور وقد ورد السجال كالتالي :

"سَجَلَ: به يَسْجُلُ سِجَالًا رَمَى بِهِ مِنْ فَوْق، وسَجَلَ المَاءَ صَبَّهُ".

"الرَجُلُ تَسْجِيلًا: اِنْعَظَ، وسَجَل القاضي كتب السَجْل"

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، المجلد 3، مادة (سجل)، ص249.

"وسَاجَلَهُ مُسَاجَلَةٌ وسِجَالًا: بَارَاهُ فاخره وعَارَضَهُ بأن صنع مثل صَنِيعِهِ في جَرْيٍ وسَقَيْ وأصلها في السقي من السَجْلِ وهو الدَلْوُ، والمُسَاجَلَةُ عند الشعراء أن يناشد الشاعر بيتا فبيتا أو شطرًا فشطرًا".[1]

ويحمل مصطلح السجال في تاج العروس المعنى نفسه أيضا جاء فيه: سِجَالٍ:" بالكسر وسَجُولٌ بالضم".

قال لبيد بن ربيعة "يجِبُلونَ السجال على السِجَالِ".

ومن المجاز سَاجَلَهُ مُسَاجَلَةٌ: إذا باراه وفاخره بأن صنع مثل صنيعه في الجري أوالسقي وأصله في الاستقاء، وهما يتساجلان أي يتباريان.[2]

كما ورد مصطلح السجال في أساس البلاغة للزمخشري:

سَجَلَ: سقيته سَجْلًا وسِجَالًا وهو الدلو العظيمة، وكتب عليه سِجَالًا، وسَجَل عليهم وكتاب مَسَجَل، ومن المجاز ساجله: فاخره مساجلة: قول أبي سفيان في الحرب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحرب بيننا سجال ندال عليه [محمد] وبدال علينا أخرى"

وقال الحطيئة من الطويل:

اِذَا قَايَسُوهُ المَجْدَ أَرْبَى عَلَيْهِمْ بِمُستفْرِغٍ مَاءٌ الذِنَابَ سَجِيلِ

---

[1]- بطرس البستاني، قاموس محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط 1 ، جديدة، 1998، مادة (سجل)، ص197.

[2]- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح، علي السيري، دار الفكر، دط، 1994، المجلد 14، المادة لام (أش)، ص333-334.

وذنوبًا:أي الدلو، جواد عظيم السَجْلَ: أي العطاء، وله بر فائض السجال، أَسْجَلَهُ: أكثر له من العطاء وأعطاه سجله كذا أي نصيبه كما يقال ذنوبه قال زهير:

تَهَامُونَ بَخِيلُونَ كَيْدًا وَنَجْعَةً لِكُلِ أُنَاسٍ مَنِ وَقَائِعِهُمُ سَجْلُ

وهذا مُسْجِلُ به: مرسل مطلق إن شاء أخذه وإن شاء لم يأخذه.[1]

يحيل مصطلح السجال في اللغة على معنيين أساسيين ويرتبط بمجالين مختلفين.

فالمعنيان الأساسيان، فهما التباري والتنافس، وأما المجالان المختلفان فهما الاستقاء والحرب.

ب-اصطلاحا:

في الأدب العربي القديم نصوص تحيل على معنى السجال اصطلاحا:

يقول الجاحظ في وصف واصل بن عطاء حين قال: "**فلم يزل يكابد ذلك [إسقاط الراء من كلامه] ويغالبه ويناضله ويساجله، ويأتي لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول**"[2]، واعتبرت هنا المساجلة حربا كلامية.

كما ورد هذا المصطلح في المقامة الشعرية للحريري مقترنا بالمناضلة والمباراة والمجاراة والمفاخرة في الحوار الذي دار بين الوالي والغلام. "... فلم ير إلا أخذهما بالمناضلة ولزهما في قرن المساجلة."[3]

---

[1]- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل، عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج1، المحتوى آلي، في ص439/ 440.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي ، بالقاهرة، مصر,ط2 ,1998,ج1,ص9

[3]- الحريري البصري، مقامات الحريري المسمى المقامات الأدبية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، المقامة الشعرية، ص228.

ولقد ميز توفيق الزيدي بين فعل السجال وخطاب السجال وبحث في العلاقة بينهما فقال: "إن فعل السجال يصاحب خطاب السجال أحيانا، ولا أدل على ذلك مما يجري أثناء المبارزة والمنازلة من التغني ببعض الأبيات الشعرية".[1]

ويقصد بالسجال هنا أنه يماثل التباري والتنافس والرغبة في الغلبة والفلج على الخصم.

"السجال قائم على صراع بين طرفين إما بالفعل في الحرب الحقيقية، وإما بالقول في الحرب الاستعارية، لذلك اقترن في مدونة الأدب بعبارات دالة على الحرب والغلبة والمناضلة".[2]

وما يؤكد هذه التعاريف ما وصف به الجاحظ العرب فقال: "**وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال... وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى الرجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة ،أو عند الصراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا**".[3]

ومن خلال هذا التعريف نتوصل إلى أن الجاحظ ربط فعل السجال بيوم الخصام، وعند الصراع أو في الحرب. ما جعل السجال حربا كلامية قائمة بين طرفين و يشي بالتساوي بينهما.

2-المناظرة والحجاج والجدال والسجال تداخل مفاهيم:

---

[1]- توفيق الزيدي، جدلية المصطلح والنظرية النقدية، نقلا عن باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2014، ص57.

[2]-باشا العيادي، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه"، مجلة الأزمنة الحديثة، الرباط، المغرب، ع5، 2012، ص199.

[3]- الجاحظ، البيان والتبين، ج3،ص 13.

تتوارد هذه المصطلحات وتتداخل في معظم الأحيان، أو قد تعد شكلا من أشكال مصطلح آخر، حيث قد يدل بعضها على بعض أحيانًا، فتستعمل المناظرة ويرادفها الجدل وقد يستعمل الحجاج ويراد به السجال أو العكس.

لذلك ارتأينا أن نعالج هذا العنصر ضمن بحثنا هذا في محاولة التفريق بين استعمالاتها، والإشارة إلى ما يمكن أن ترد فيه وتدل على معاني بعضها.

أ- **المناظرة:** وردت في المعاجم على وزن مفاعلة، والمفاعلة صيغة تدل على المشاركة وإثارة الفعل وتحريك الفعل بين اثنين "النظر تأمل الشيء بالعين"[1] فهي تعني "النظر من جانبين في مسألة من مسائل قصد إظهار الصواب فيها، فالمناظرة من كان عارضا أو معترضا، وكان لعرضه أو اعتراضه أثر هادف ومشروع في اعتقادات من يحاوره سعيا وراء الإقناع والاقتناع بالرأي سواء أظهر صوابه على يده أم على يد محاوره".[2]

ب-**الحجاج:**

أما الحجاج كما جاء في تعريفه اللغوي: من الحجة والمحاجات أي غلبته بالحجة[3]،

فهو "خطاب صريح أو ضمني ليستهدف الإقناع والإفهام معا، مهما كان متلقي هذا

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، ج6، المادة نظر ,ص465،.

[2]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص46.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، ج6، المادة حجج ,ص465.

الخطاب ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك".[1]

وتشير الدراسات إلى أن الحجاج أوسع في دلالته من الجدل فكل جدل حجاج وليس كل حجاج جدلا.[2]

ج- **الجدال:**

وتحيلنا مادة جدل في اللغة العربية أنها تدل على مراجعة الكلام وذكر الحجج والشدة في تقريرها، وجدله أي ألقاه على الجدالة وهي الأرض".[3]

و "يكون الغرض منه إلزام الخصم والتغلب عليه في مقام الاستدلال".[4]

وقد جاء الجدل في القرآن الكريم على معنيين أحدهما محمود، وهو تقرير الحق باستعمال الأدب الجم ، في مثل قوله تعالى:﴿ ﴾[5].

---

[1]- حبيب أعراب، "الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع01، 2001، مج 30، ص99.

[2]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، نقلا عن ليلى جغام، الحجاج في البيان والتبيين للجاحظ، أطوحة لنيل درجة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي،اشراف محمد خان، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2012. 2013، ص 07.

[3]- محمد بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد الباسل، دار الكتب العلمية ,بيروت، لبنان،1ط, 1998,ج 1,ص53.

[4]- أبو زهرة محمد، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، دط، 1950، ص34.

[5]- سورة النحل، الآية 125 .

والمعنى الثاني مذموم، وهو ما كان بسوء أدب أما لجهل أو نصرة باطل [1] في مثل قوله تعالى 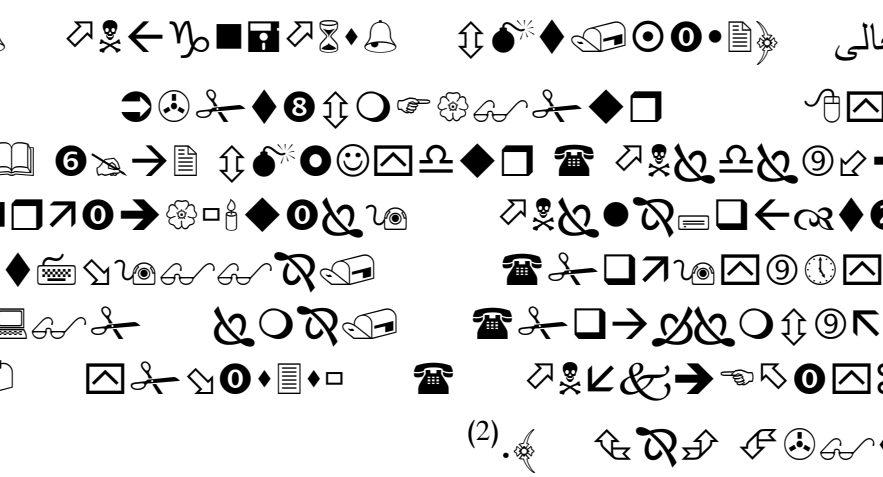 .[2]

ويحيلنا معنى السجال كما تطرقنا له في التعريف اللغوي بالتباري والتنافس في الحرب ومفاخرة، وتعريفه عند أَرْكْيُونِيOrechioni : "أنه محاورة قائمة على اختلاف قد يبلغ حد الخصومة ،والحرب ولهذا يخرج من محاورة الأكفاء، ومفاوضة الإخوان إلى منازعة الخصوم، ومقارعتهم".[3]

وخلاصة الأمر أن المناظرة عرض بدون شدة، مقابلة بين الإقناع والاقتناع، فإما أن يثبت الرأي الأول فيشنع الثاني أو العكس، أما الحجاج هو فعرض لرأي مع حجة من إقناع، والجدل هو المخاصمة، فهو أكثر حدة وشدة يكون في الباطل كما يكون في الحق.

أما السجال فهو أعم ويضم المصطلحات السابقة و كثر استخدامه في النثر العربي القديم لكن دراسته قليلة جدا قديما و حديثا .

---

(1)- محمد بن إبراهيم عثمان، أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، مكتبة ابن القيم، الكويت، ط1، 2001، ص11.

(2)- سورة غافر، الآية 5 .

(3)- باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1 ، 2014 ، ص66 .

3- السجال في تراث الأدب العربي:

يقف تراثنا الادبي القديم على فنون سجالية كثيرة، ولعل أشهرها تلك النصوص الشعرية كالنقائض والمعارضات، التي تأسست على حوار خارج النص، هو حوار لنصوص تتساجل فيما بينها وسيلتها اللغوية "الوزن والقافية المشتركة" أما النثرية فتجلت في المنافرات والمفاخرات التي تأسست على حوار داخل النص وسيلته اللغوية "أفعال التفضيل"[1]، وقد ازدهرت هذه الفنون الشعرية والنثرية في الجاهلية ثم خبا نجمها في صدر الإسلام نتيجة مضامينها التي تناقض جوهريا قسمه ومبادئه،ثم عاد فن الخطاب السجالي إلى الظهور في عدد من الفنون الأدبية الجديدة في أعنف مظاهره مع الصراع على الخلافة بين الهاشميين والأمويين خلال القرن الهجري الأول على وجه الخصوص، مثل الشعر السياسي ومن أعلامه الكُمَيَّت[2]في الهاشميات.*

وفي المرحلة الموالية يهدأ الصراع على السلطة ويتحول من المبارزة بالسيف والسنان إلى المبارزة بالقول واللسان، وتسجيل هذه الفنون أشكالا من التساجل الأدبي المحض القائم على ضرب من المفاضلات والموازنات حيث يظهر الخطاب السجالي في قصص الحيوان كما في كتاب كليلة ودمنة "لعبد الله بن المقفع"، وكسب المسامرات وما جرى فيها من

---

(1)- ينظر: باشا محمد العيادي، فن المناظرات في الدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص28.

(2)- عبد المجيد زرقاط ، "هاشميات الكميت بن زيد الاسدي (حافز الحق للثورتين السياسية الاجتماعية و الادبية)"، مجلة المناهج، د ب، ع 2 ، 10 ديسمبر 2013 .11:33 28/01/2015 http:// al-serat.com comtent. Php ?a

*الهاشميات: مجموعة قصائد طويلة أنشدها الكميت بن زيد الأسد، 60هـ-120.يدعو فيها المسلمين لموالات أهل بيت النبي الهاشميين، والثورة على الحكم الأموي.

محاورات ومجادلات مثل ما نجده في كتابي "الامتاع والمؤانسة"، "المقابسات" لأبي "حيان التوحيدي".

كما ورد الخطاب السجالي أيضا في الردود والرسائل الجوابية مثل رسالة الغفران لأبي العلاء المعري التي أجاب فيها عن أسئلة ابن القارح.

ومن ذلك أيضا المناظرات التي وردت في كتب كثيرة بدءا بمؤلفات الجاحظ التي استمدت قوة حجتها وبيانها الساطع من المورث الاعتزالي[1]، مرورا بالتوحيدي ومقامات الهمذاني والحريري ولاسيما إذ عرفنا أن البديع منشئ المقامة كان مناظرا كبيرا وخصما لا يقهر، خصمه الخوارزمي[2]، وصولا إلى كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

ففي مصادر التراث مدونات ضخمة لفنون سجالية عديدة أسست لأدب حجاجي غايته إثبات بلاغة العقل واللسان والقلم معا، وذلك ما التفت إليه الجاحظ في غير موضع من كتبه فمن ذلك قوله: قال بعض الهند: **جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة**".[3]

كما أننا نجد ابن خلدون قد ذكر عددا كبيرا ممن كتب في الجدل: "...معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه كما كان باب المناظرة في الردود والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج

---

[1]- ينظر، فكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ص117-178.

[2]- ينظر، ضياءالكعبي، السرد العربي القديم الأنساق الثقافية وإشكالية التأويل، دار الفارس، عمان، الأردن، ط1، ص148.

[3]الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ، ص88.

ومنه ما يكون صواب ومنه ما يكون خطأ، فاحتج الأئمة أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظرون عند حدودها في الرد والقبول".[1]

ولعل أشهر مصادر التراث القديم التي تضمنت نماذج كثيرة من أشكال السجال نذكر كتب الجاحظ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

والعقد الفريد لابن عبد ربه، وزهر الآداب لعلي الحصري والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام وبلوغ الأدب للأوسي وغيرها.[2]

وما نخلص إليه من خلال إطلالتنا القصيرة على هذا الإرث السجالي في الأدب العربي القديم، أن فنونه كانت مشروطة بأساليب آداب متنوعة الأشكال من خلال المفاهيم التي توارت في تراثنا الأدبي القديم عامة وفي كتب الجاحظ خاصة، حيث يقوم السجال لديه على جملة من المفارقات لعل من أهمها أن يجري بين طرفين يحملان رأيين متعارضين متقابلين يسعى كل واحد منهما إلى التغلب على الآخر، وهذا يحتم مبدئيا قطيعة بينهما، في أحسن حالات الحوار.

وقد شاع هذا الفن في أدبنا العربي القديم، وكان ذلك في الشعر أولا ثم انتقل إلى فرسان النثر في العصر العباسي خاصة عند إمام المعتزلة أبو عثمان الجاحظ، وذلك ما سنقف عنده في الفصل الأول من هذا البحث.

---

[1]- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تح درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط جديدة، 2005م، ص428-429.

[2]- باشا العيادي، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه"، ص200.

الفصل الأول : أشكال السجال في أدب الجاحظ

1/ منازعة الخصوم

2/ مناظرة الاكفاء والبلغاء

3/ مفاوضة الإخوان

أشكال السجال في أدب الجاحظ:

برز الفكر الأدبي في العصر العباسي بحلة جديدة حيث اعتبرت هذه الفترة محطة مهمة في تطور الأدب العربي وأعطت تنوعا في مواضيع الشعر والنثرهذا الأخيرالذي بلغ ذروة من العطاء بفضل عددٍ من الأدباء من ضمنهم الجاحظ الذي أبرز النثر العربي بزيّ جديد لم يعهده العرب من قبل لذلك عُدَّ مؤسسا للسجال ومنظرا له في جلِّ ما ألّف من كتب ورسائل، وعنه نقل الأدباء ومن بعده نهجوا منهجه في التأليف وساروا على هديّه في الكتابة الأدبية وأشكالها حتى غدا ذلك تقليدا في الأدب الإنشائي عند العرب، ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا هذه التساؤلات: إذا كان الجاحظ مؤسسا للسجال في النثر العربي من خلال مؤلفاته فما هي أشكاله وما خصائص كل شكل سجالي ورد في مؤلفاته؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات واطلاعنا على أدب الجاحظ ووقوفنا على رسائله وكتبه يمكننا أن نصنّف أشكال السجال إلى ثلاث أنواع، وذلك بحسب درجة الاختلاف بين المتساجلين وصياغة الموضوع أيضا وذلك من خلال ما وضحه في سياق وصفه لواصل بن عطاء في إسقاط الرّاء من كلامه يقول: « **ومن أجل الحاجة لحسن البيان وإعطاء الحروفّ... رام أبو حذيفة إسقاط الرّاء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابدُ ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله (...) ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائل المخلدة، لأن ذلك يُحمِّلُ الصنعة وإنما عُنيت محاجة الخُصومِ، ومناقلة الأكْفاء، ومفاوضة الاخوان** »[1]

[1] – الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1 ، ص17 .

من خلال الشاهد حدد لنا الجاحظ أشكال السجال المرتبة ترتيبا تنازليا حسب درجة الاختلاف بين المتساجلين .[1]

1/ منازعة الخصوم:

في مساجلات الجاحظ صورة فريدة للمساجل لا نجدها في غير أدبه لها ما يميّزها حيث قدم الجاحظ صورة مشتركة بين المتساجلين على تصوير مجموعة من الكفاءات. [2] تجعل هذه الأخيرة أي المساجلة وسيلة للتمكن من علم الكلام عند المساجل الاعتزالي * فتشبعه بمقالاته وقدرته للرد على خصوم وفلج عليهم إخصامهم وإقناعهم بالحجج والبراهين من خلال انتصاره لشيء،أو معارضته،ونجد هذا النوع من المساجلة قد ورد بمعنى التباري والتنافس والمغالبة، كما عبّر عنه الجاحظ بمصطلحات أخرى توارت في مؤلفاته، واستخدمها من بعده عدد من الكُتاب أبرزهم أبو حيان التوحيدي*

فقد استخدم أبو عثمان لهذا النوع أي منازعة الخصوم استخدم في مصادره الأخرى تخاصم المحتجين، ومجاثاة الخصم كما أبرز الجاحظ عبارة منازعة الخصوم في مواضع عديدة من أدبه فقال أثناء حديثه عن علم الكلام وآفاته وما يجلبه لصاحبه من ضروب المكروه « **فإنه لا يظهر إلا لكل عقل سليم جيد التركيب وذهن صحيح خالص الجوهر ثم يدركه أيضا إلا بعد إمعان الفكر وإلا بعد دراسته الكتب وإلا بعد مناظرة الشكل الباهر والمعلم الصابر ... وهي صناعة لا يكاد يُظهر قوتها ولا يبلغ أقصاها إلا مع حضور الخصم ولا يكاد الخصم يبلغ محبته منها إلا برفع الصوت وحركة اليد ولا يكاد**

---

(1) – باشا العيادي، "أشكال السجال في النثر العربي"، ص 202.

(2) – ينظر باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية. ص 196.

* الاعتزال: فرقة كلامية ظهرت في البصرة اعتمدت على العقل في تأسيس عقائدها وقدموه على النقل وقالوا أنه هو والفطرة السليمة قادران على التمييز الحلال من الحرام.

* أبو حيان التوحيدي (310 هـ–414 هـ) من بغداد إمتهن الوراقة مدهبة اعتزالي تلميذ الجاحظ اتصل بكبار عصره كان ذكيا فصيحا، ولما بلغ التسعين أحرق جميع مؤلفاته واتجه إلى التصوف.

اجتماعهما يكون إلا في محمل عظيم والاحتشادُ من الخصم ... وهذه الحالة داعية إلى حب الغلبة». [1] ومن خلال هذا الشاهد يوضح لنا الجاحظ أهم مميزات هذا الشكل وذلك بتحديد عناصر المقام، ونعني بذلك العلاقة بين الحاج والمحجوج، [2] مع تأكيده إلى ضرورة مراعاة مقتضى الحال، فمما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر التي نقلها الجاحظ في البيان والتبيين قوله: « **وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال** » [3]

حيث فطن إلى ما يُنجزه المساجل من أعمال لغوية أثناء التساجل قصد التأثير في المتلقي فاستشهد بقول ابن شمر الغساني_ « **أقبل على فلان باللحظِ واللفظِ والكلامِ إلا زجرا أو وعيدا** » [4] .

وفيه حديث عن الرغبة في التأثير وما يصاحب التنافس من انفعال وحبٍ للغلبة والتغلب فتحدث عن أهمية المقام وضرورة مراعاته عند التخاطب يقول: « **رفع الصوت وحركة اليدِ** » [5] ، كما نجده أيضا نبه على أهمية المكان باعتباره من العناصر المقامية الفاعلة في الخطاب السجالي .[6]، يقول الجاحظ « **وليس في الأرض لفظ يسقط البيئة ولا معنى يدور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن** »[7]

وقد عني بالمكان في هذا الشاهد، أي الفضاء الذي تجري به المساجلة كالقصر،أو المسجد، أو الدار،أو السوق أو غيرها [8] ، لكن المكان الذي تجري فيه المساجلات والمقاولات، والمجاوبات، وهو المحفل يختلف عن ذاك الذي تلقى فيه القصائد، أو الذي

---

(1) – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ، ص17 .

(2) – ينظر باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، ص202

(3) – الجاحظ البيان والتبيين، 1ج ،ص 136 .

(4) – المصدر نفسه، 1 ج ،ص 136

(5) – المصدر نفسه، ج1 ،ص136.

(6) – ينظر باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص370.

(7) – الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1 ،ص 93

(8)– باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص370.

تلقى فيه الخطب ورمزها المخاصر والعصي التي يمسك بها الخطيب، وقد أوجز ذلك الجاحظ في بيتين أوردهما في البيان والتبيين في إطار مدح العرب بالفصاحة والبلاغة، وقال كميت بن زيد:

أَهْلُ التَجَاوْبِ وَالمَحَا فِلِ وَالمَقَابِلْ بِالمَخَاصِرْ

وهُمْ كَذَلِكَ فِي المَجَا لِسِ وَالمَحَافِلِ وَالمَشَاعِرْ [1]

إذا كان بعض الأجناس الأدبية والأنواع الخطابية يقتضي الإيجاز وبعضها الآخر يقتضي الإطالة، فإن بعض هذه الأماكن مداعاة إلى إيجاز الكلام واختصاره، وبعضها الآخر يوجب الإطالة والتوسع، وهو ما عبر به الجاحظ عند تعريف البلاغة بأنها: « **إصابة المعنى والقصد إلى الحاجة مع الإيجاز ومعرفة الفصل من الوصل** » [2]

وهذا الشكل هو أقرب الأشكال السجالية إلى الحرب، ويقترن بمعجم الخصام والتنافس والصراع والعراك، كما يركز هذا الشكل على التنوع الشديد للمخاطبين الذين يتوجه لهم الخطاب الحجاجي، إذ يوازن المتكلم بين الانتصار للشيء أو معارضته، ويتمثل هدفه التأثير في الخصم والجمهور الذي يتوجه إليه الخطاب. [3]

كما يشيرالحجاج أو التدليل إلى ذلك الخطاب الضمني أو الصريح الذي يستهدف الإقناع والإفحام معا مهما كان متلقي هذا الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبع في ذلك وهذا المعنى الذي يؤخذ أبرز منظري نظرية الحجاج المعاصرة إذ يرى ميشال مايير أن الحجاج عادة ما يعرف: « **بكونه جهدا إقناعيا ويعتبر البعد الحجاجي بعدا جوهريا في اللغة ذاتها، وينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة استرايجية معينة تعتمد إليها لغويا وعقليا أما إقناع أنفسنا أو غيرنا** » [4]

---

(1)– الجاحظ، البيان والتبيين،ج1 ص 360 –371.

(2) – المصدر نفسه، ج1 ، ص59 .

(3) –ينظر صابر الحياشي ، التداولية و الحجاج مدخل و نصوص الصفحات لدراسة و نشر ، دمشق، سوريا ، د_ط،2008 ، ص 70

(4)– حبيب أعراب ، "الحجاج و الاستدلال الحجاجي عناصر الاستقصاء نظري" ، ص 127

فهو يستمد خصائصه وقيمته من حقل الحياة اليومية للناس أو يكون هو الفكر والتفكر من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا ومن بين هذه المنازعات التي ذكرها الجاحظ في مصادره كثير من المحاورات التي جرت بينه وبين خصومه الذين عابوا عليه كتبه وطعنوا في طريقة تأليفه في كتاب الحيوان .[1]

ومن الصفحات الأولى التي توجه بها الجاحظ إلى المخاطب مزدري لكتبه عائبًا، مخالف له ما يصطنع، مكثرا من العتاب على كل ما كتب ويتفنن أبو عثمان في إيراد الأمور بالتفصيل حتى تحول القسم الأول من المقدمة مسردا لكتبه ورسائله مشيرا كل مرة سبب العيب وما أتى الطعن في بنية حجاجية تنطلق من الجزء الفرد لتصل إلى العام الشامل يقول : « **وعبتني بكتاب الصرحاء الهجناء ومفاخرة السودان والبيضان ... ، عبتني بكتاب القحطانية والعدنانية في الرد على القحطانية، عبتني بكتاب العرب والموالي عبتني بكتاب العرب والعجم عبتني بكتاب الأصنام عبتني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض..**»[2]

فالمعاتب أو الخصم قد شمل جميع أصناف الكتب التي ألفها الجاحظ ، وبدا رافضا لكل المجالات التي تناولها بالدرس والتحليل مما جعل الجاحظ يستغرب هذا الأمر ويرى فيه تحاملا وظلما ولا سيما موقفه من كتابه هذا، وقد اعتمد فيه طريقة ومنهجا يجعلان منه كتابًا جديرًا بالإعجاب والتقدير من خلال هذا الشاهد الذي يوضحه الجاحظ:« **وهذا الكتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده وتتفكر في فصوله وتتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده ، وقد غلطك ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معناه، ومن بطالة لم تطلع على غورها ولم تدري لِمَ اجتلبت ولا لأي علة**

---

(1)– باشا العيادي ، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه" ،ص 20

(2) –الجاحظ ، الحيوان ، تج عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر،بيروت، لبنان، ،د–ط ، 1988 ج 4، ص 6.5.4

تكلفت وأي شيء أريغ بها ولأي جد احتمل هذا الهزل ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة...» [1]

من الإشارات تدل على أن أبو عثمان كان محل مساجلة قوية واعتبرنا ذلك شيء بديهي بالنسبة إلى مثقف نعرف انتماءه ودفاعه عن الأفكار التي يحاول ترويجها بين الناس بهدف الإقناع [2] إلى أن الإشارة من بين تلك الإشارات بدت لنا مهمة في هدينا أو في ترجيح مذهب في رأي دون مذهب وهذه الجملة وردت في قول الجاحظ:« **قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له** » [3]

فهذه المقولة أفادتنا على معرفة المختلفين وراء الخطاب الذي أبقى الجاحظ بتهم مستورة إلى هذا الموقع المتأخر من المقدمة، إذ بهم أنصار الشعر المحتجون له.

والبنية في الجملة بنية تراتيبية فالانتصار يؤدي من جهة إلى الرعاية والعطف والإحاطة ويؤدي من جهة العقل إلى الإحتجاج. [4]

ويتأكد لنا هذا الأمر متى نظرنا في سياقات أخرى وردت في المقدمة وتلح على هذا المعنى وترجح وقوعه وذلك بدحض أقوالهم وما عيب عليه يقول: « **ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتابي لي بعينه حتى تجاوزت ذلك إلى أن عِبت وقع الكتب كيفما دارت بها الحال وكيفما تصرفت بها الوجوه، وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبت الكل بلا علم، ثم تجاوزت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزت ذلك إلى**

---

(1)–الجاحظ الحيوان ، 1 ج ص 32

(2) – ينظر، نور الهدى باديس ، دراسات في الخطاب نقد الأدبي ، دار الدارس ، عمان الأردن ،ط1 ، 2008 ص 41 .

(3) – الجاحظ ، الحيوان ، 1 ج، ص 51 .

(4)– نور الهدى باديس ، دراسات في الخطاب التداولي ، ص 41

نصب الحرف، فعبت الكتاب... »[1]ولهذه الفقرة أهمية كبيرة فيما نحن بصدده لأن الجاحظ يكشف فيها بطريقة مختلفة عن الأسباب العميقة التي جعلته يكتب هذه المقدمة بهذا الأسلوب وتلك اللهجة فالمسألة ليست خلاف بين ناثر وقارئ بل تتعدى ذلك أسباب الطعن والتي قد تكون نفسية خاصة كالحسد والتنافس أو اختلاف الرأي وأصول الاعتقاد وهذه هي النقطة المهمة والميزة الأساسية لهذا الشكل السجالي، فهمّ الجاحظ الدفاع عن طريقة الكتابة في تناول المعرفة بتماشي وتطورات الحداثة في بنية المجتمع في القرن الرابع الهجري.

وقد جاءت صيغ التعميم في تلك الفقرة دالة على ما نقول، فالأمر ليس في عيب الكتاب بعينه ولا كتب الجاحظ وإنما:« **وضع الكتاب كيفما دارت بها الحال وكيفما تصرفت بها الوجوه .**» [2]

والمسألة ليست بين شخصين بل بين نهجين يختلفان في نمط الكتابة وتصريف اللغة ولم يقتصر الجاحظ في العبارة لوصف خلافًا بينه وبين المخاطب، باعتبارهما يمثلان نهجين تتكهن أنهما متقابلان، فقد عمد إلى التدرج في أنواع الأفعال في هذه الفقرة من الرضى بالطعن إلى التشنيع، إلى نصب الحرب وليس ندل على ذلك من هذه العبارة الأخيرة على المسألة في ذلك الوقت كانت متأججة على أشدها يحمل كل طرف من الأطراف العدة ما به يستطيع أن ينتصر على الخصم مما يستهدي إليه من وجه الحجج، وبما سيكون لتلك الحجج من القدرة على الإقناع والمركب الإضافي نصب الحرب أهمية خاصة في هذا المقام.

فالحرب لا تقوم إلا بين متخالفين لا سبيل إلى الإصلاح بينهما ولا بإمكانية التقرب الثقة الفاصلة بين ما يعتقد الواحد وما يعتقد الآخر فتأتي الحرب لتفصل النزاع لفائدة

---

(1)– الجاحظ الحيوان ، ج1 ،ص32

(2) – المصدر نفسه ، ج1 ،ص 32

فريق دون آخر وموقف دون موقف[1]

وفي هذا الوقت المبكر من الاختلاف وعدم الاتفاق وما لا ينفع له الصلح ولا تجدي معه الوساطة.[2]

ثم إن الجاحظ يحمل خصمه تبعات نصب الحرب، ونصبها يدلنا على اشتعالها وبداية لهيبها فالفريق المخاطب هو الفريق المعلن عن الحرب لأنه أدرك ربما أن ذلك الطارئ الحادث هدد كيانه بقوله: « **كيفما دارت به الحال.**» [3]

ويكون الفريق المقابل « **من يعيب ذلك وجهل فيه**»[4]

وقد يكون العائب للكتاب بأنه يفضل صنائع أخرى كالمشافهة فتكون الحرب بين فريقين، فريق ينصر تثبيت العلوم والآداب ووضعها في وثائق لا تتبدى ولا تتغير وبين فريق من تستهويه المشافهة أي ثقافة الشفوي، أي ما تفتح إمكانية الإضافة والتعبير وتسمح للنص أن يتسع وأن يضيق بحسب مقتضيات الحال والمقام.

تنصب الحرب بين نمطين أو نهجين في التعامل مع اللغة وهذا الشاهد سيسمح لنا بذلك لأن الجاحظ كشف لنا في موطن من المقدمة عن طرفين في حديثه عن صعوبة الترجمة وعدم قدرة الترجمان على تأدية معاني الحكم على خصائصها من لغة لأخرى ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: « **إن الترجمان لا يؤدي أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذهبه، ودقائق اختصاراته وحفيان حدوده، ولا يقدر أن يوفيها ... ويؤدي الأمانة فيها ويقوم بما يلزم الوكيل، ويحب على الجري، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والأخبار عنها عن حقها وصدقها إلا أن يكون بالعلم في معانيها وتصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه**

(1)- نور الهدى باديس، دراسات في الخطاب نقد الأدبي، ص42

(2) –ينظر ، المرجع نفسه ، ص 43

(3)–الجاحظ ، الحيوان ، ج1 ،ص32

(4) – المصدر نفسه،ص 32

فمتى كان رحمه الله بن بطريق وبن ناعمة وبن قرة وبن فهريز وبن وهلي وبن المقفع مثل أرسطو طاليس ومتى كان خالد مثل أفلاطون. » [1]

فيتضح لنا مما تقدم أن الحرب تقوم بين طرفين فريق ينصر الشعر وفريق ينصر الكتابة والكتاب مذهب للتعبير عن النثر.

المقدمة إذا صدى للخلاف بين نمطين في الكتابة نمط أصيل تعود جذوره إلى ما يسمى بالجاهلة، ونمط طارئ دخيل هو النثر.

ومن هنا يبرز لنا أن الجاحظ كتب مقدمة الكتاب للدفاع عن الكتابة والكتاب، وجمع الحجج والبراهين المختلفة، التي بها يمكن أن يقنع قارئه، ويكسبه إلى صفه وقضيته.

ومن القضايا المهمة التي أبرزتها هذه المقدمة المفاضلة بين الشعر والنثر، فالأخير قد صادف من تجاربه الأولى، والمكتملة مع الجاحظ في القرن الثالث الهجري، صادف مقاومة عنيفة من قبل البنية الثقافية التي عمادها الشعر ،وذلك رغم الحاجات التاريخية والضرورات التي تقف وراء ظهور النثر نهجا في الكتابة يلائم أوضاعها من كل الجوانب، والتنظيمات الإدارية الجديدة لدولة العرب والمسلمين .

وهذا ما جعل النثر الأول موزع بين النثر السلطاني والنثر الأدبي عند الشخص الواحد من أمثال الناثرين الفرس مثل عبد الحميد الكاتب وبن المقفع [2]

وبذلك يتأكد الانتقال من طور إلى طور، ومن نهج في القول إلى نهج لم يكن أمرا ميسورا فدفع ثقافة عمادها المشافهة وعنوانها الشعر

---

(1)– الجاحظ ، الحيوان ، 1ج ،ص 51

(2)– نور الهدى باديس ، دراسات في الخطاب النقد الأدبي ، ص 44

ووقعه إلى أن تصبح ثقافة تسند إلى المقيد المكتوب الموثوق الثابت، أمر دوّنه كثير من الصعوبات وتواجهه جملة العقوبات وتضارب المصالح على الفوز بالحظوة والمنعة

بل المقدمة دفاع عن النثر والكتاب بجمع الحجج التي بمقدورها أن تظهره على أنصار الشعر المتمسكين به نهجا لا نهج سواه في الكتابة.

وخطاب الجاحظ ليس دفاعا عن النفس وصونا لكتبه من المطاعن والشين، وإنما هو دفاع عن موقف وتصوير رؤيا لما جدّ في المجتمع من تحولات لا مناص معها من تحول وفي نهج الكتابة وأساليبها الذي غلط الناس في مسألة عدم إدراكها بنية خطابه التي تنطلق من الخاص إلى العام [1]

من نسبة المتكلم في صياغة عبت كتابي(...) عبت .[2] ... في الصياغة العامة

وفي أن الرجل كان داعية وزعيم نحلة لا بمعنى كلامي إنما بمعنى ثقافي حضري.

فيتضح لنا مما تقدم أن الاستدلال الذي اعتمد عليه الجاحظ لإبراز فضل الكتاب والحجج العديدة والبراهين المختلفة التي قدمها دعما لرأيه واحتجاجا لموقفه لم تكن الغاية منها مجرد دفاع عن الكتب المنسوبة إليه ثم الاستنقاص من قيمتها وذكر الخصوم ومعاييبها لعرض ذاتي دفع إليه الحسد من طرف الصنعة الواحدة .

القضية أعمق بكثيرمن ذلك أن وعي الجاحظ كان حائد في مرحلة الشعر بصددها بضرورة تحقيق التلاقح الحضري والمثاقفة التي ينشدها كل مفكر[3] هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد الجاحظ قد استخدم هذا الشكل السجالي في مصدر آخر، وهو الرسائل المضمنة الأخبار كتلك التي دارت بين "شداد الحارثي" الذي كان خطيبا عالما والآمة السوداء في رسالة فخر السودان عن البيضان، ويعتبر هذا الكتاب من أمتع رسائل الجاحظ، حيث عدد من خلال هذه الرسالة مفاخر السوداء على البيضان وتزويد القارئ

(1) – نور الهدى باديس ، دراسات في الخطاب النقد الأدبي ،ص 44.

(2) – الجاحظ ، الحيوان ، ج1 ،ص13

(3) – نور الهدى باديس ، دراسات الخطاب النقد الادبي ، ص 47 .

بتعريف شامل من هم السودان وتنبيه لقدر هذه الطائفة وذلك لتبيين البناء الحجاجي داخل النص الذي كان قائما في بدايته حول الصلع والسواد : « **فقال الشدّاد الحارثي وكان خطيبا عالما. وقلت للآمة السوداء بالبادية لما أنتِ بسوداء؟ قالت: لسيد الحضر يا أصلع، قال: قلت :أولستِ سوداء؟، قالت: أولستَ أصلعْ، قلتُ ما أغضبكِ من الحق.؟ قالت :الحق أغضبك لا الشتم حتى ترهب ولأن تتركه أمثل. وقال الشداد لقد كلمتها وأنا أظن أني بأهل نجد وما نزحت عني إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمتي** »[1]

ففي تلك المنازعة يغيب مبدأ التكافؤ الاجتماعي والمعرفي فقد سعى كل طرف إلى إفحام خصمه وإسكاته حتى اعترف الشدّاد بالهزيمة في آخر المطاف وذلك بقوله: « **لقد كلتها وأنا أظن أني بأهل نجد وما نزعت عني إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمتي** »[2]

هنا يتضح أن التنازع بين الخصمين كان طبقي في المجتمع البصري في ذلك العصر.

فالجاحظ يذكر لنا في هذه الرسالة مناقب السودان على العرب من خلال هذا الشاهد: « **وكان سعيد أروع خلق الله وأتقاه، وكان أعظم أصحاب بن العباس حتى يجيء بسعيد بن جسير وأبوه وموالي بني أمية وقتل يوم قتل الناس يقولون كلنا محتاج إليه و(منهم) بلال الحبشي – رضي الله تعالى عنه – الذي يقول فيه عمر بن الخطاب–رضي الله تعالى عنه– أبو بكر سيدنا وعاتق سيدنا وهو ثلث الإسلام (منهم) وهو قتيل قتل بين الصفين في سبيل الله** » [3] فيكون هذا الطرح السجالي قائم على تواتر صيغ التفضيل والتي تعتبر أهم أداة فنية ميزة للمنازعات الكلامية وهيمنتها على الخطاب [4]

---

(1) –الجاحظ ، الرسائل ، تح عبد السلام محمد معارف ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 1989 ج1 ،ص 54 .

(2)– المصدر نفسه، ص 54

(3)– المصدر نفسه، ص 55

(1)–ينظر ، باشا العيادي ، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية ، ص 190

فالجاحظ في هذه الرسالة جاء مدافعا عن السودان، باعتماده على حجج وبراهين مبرزا لخصمه من أجل دحضه وإقناعه، لتنزيه العقل على أن يكون سببا في النقائص والعيوب، ولهذا اتسعت دائرة الخطاب لتحمل عددا اكبرا من الناس، وليس ذلك بالغريب على الجاحظ المعتزل الذي آمن بالعقل، وقد تبناه في منهجه وكتابته الأدبية ومساجلته مع علماء علم الكلام، فهو في هذا الشاهد يعدد مآثر السودان عمن هم بيضان مستدلا بأحاديث نبوية شريفة يقول: « **ومنهم جليبيب الذي تحدث الرواة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – خرج في غزاة فقال لأصحابه: هل تفقيدون من أحدٍ قالو نفقد فلانا وفلانا. ثم خرج فقال هل تفقدون من أحدٍ . قالو نفقد فلانا وفلانا ثم خرج فقال هل تفقدون من أحدٍ . قالو لا قال لكني أفقد جليبيب، أطلبوه. فطلبوه بين سبعة قد قتلهم ثم قتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قتل سبعة ثم قتلوه هذا مني وأنا منه. قال ثم حمله على ساعديه حتى حفروا له ما له سرير غير ساعدي الرسول صلى الله عليه وسلم .**» [1]

ومما أشار إليه طائفة من عظماء السودان مع ذكر أفضالهم وفيهم عدد غير قليل من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن السلف الصالح، كما استعرض تلك البراهين بالشرح لقصيدة الحيقطان الرائية التي يتمدح فيها مآثر ومفاخر أهل السودان، ويمكننا هنا تلخيص أهم مفاخر أهل السودان التي أشار إليها الحيقطان.

أولا: جميع الملوك والزعماء من العرب والعجم كقيصر الروم، وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم، رفضوا اعتناق الإسلام حينما كاتبهم الرسول –صلى الله عليه وسلم– ودعاهم إليه ما عدا النجاشي ملك الحبشة الذي أسلم دون تردد، فهو الملك الوحيد الذي اعتنق الإسلام لذلك صلى عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– صلاة الجنازة على الغائب

(2)– الجاحظ ، الرسائل ، ، ج1 ،ص 56

حينما بلغه نبأ وفاته وقبل إسلامه وصفه النبي أنه ملك لا يظلم عنده أحد أمر صحابته أن يهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة وهو ما عناه الشاعر الحيقطان بقوله:[1]

فَإِن كُنتَ تَبْغِي الفَخْرَ فِي غَيْرِ كَنْهِهِ فَرِهْطُ النَجَاشِيِّ مِنْكَ فِي النَّاسِ أَفْخَرَ

تَأَبَى الجَلَنْدِي وَابْنُ كِسْرَى وَحَارِثًا وَ هَوْذَةَ وَالقِبْطِيُّ وَالشَيْخُ قَيْصَرَ

وَفَازَ بِهَا دُونَ المُلوكِ سَعَادَةً فَدَامَ لَهُ المُلْكُ المَنِيعُ الوَافِرَ[2]

هذا ما استدل به الجاحظ من الشعر ليبرهن لخصمه على فضل السودان على البيضان كما أننا نلمس لونا آخرا من البراهين كالحكم مثلا فالله قد اختص أهل السودان دون من سواهم حيث جعل لقمان الحكيم الذي ذكر في القرآن الكريم رمزا لها وسميت سورة في القرآن باسمه .

قال الحيقطان*:

وَلُقْمَانُ مِنْهُمْ وَابْنُهُ وَابْنُ أُمِه وَأَبْرَهَةَ المُلْكُ الذِي لَيْسَ يُنْكَرُ[3]

رغم أن الفلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو اشتهروا عبر العصور بأنهم رمزا للحكمة إلا أن الله عزّوجل اختار لقمان للحكمة.

كما أن السودان هم أشجع الناس وها هنا يشير الحيقطان إلى حادثة فيل أبرهة لهدم الكعبة فانتصر الله عزوجل لكعبته .

وفي المساجلة السالفة نجد الجاحظ يذكر مفاخر السودان بحديثه عن الكرم والسخاء عند الزنج بالاستدلال من الشعر الجاهل يقول:« **والعرب تفخر بسواد اللون (فإن قال) قائل فعلام وهي تقول: فلان هجان، وأزهر أبيض أوغر؟ قلنا: ليس تريد بهذا بياض الجلد**

---

(1)– الجاحظ، الرسائل،ج1 ،ص 58

(2)– المصدر نفسه ،ج1 ، ص58

*–الحيقطان : شاعر قال قصيدة يحتج بها اليحانية على قريض و مضر و يحتج بها الحبش و العجم على العرب.

(3)– المصدر نفسه ،ج4 ،ص80 .

إنما تريد به كرم الجوهر ونقائه وقد فخرت خضر المحاربِ بأنها سودٌ والسود عند العرب خضر وقال الشماخ بن الضرار:

وَرَاحَتْ رَوَاحًا مِنْ زَرُودٍ فَنَازَعَتْ زُبَالَةَ جَلْبَابًا مِنْ اللَّيْلِ أَخْضَرَا[1]

فقد استشهد ببيت من الشعر الجاهلي ومدى فخر العرب بسواده وبقوله : « **يقول بن عباس الخضروان من الري السودوان. (...) وأكرم ما في الإنسان حد قتاه وهما سودوان. وأكرم الأكحل الأثمد وهو أسود .** »[2]

فالجاحظ في رسالته قام بالانتصار للسودان لتقديم حجج وبراهين عقلية وذلك بتوظيفه للعقل لأنه أحد من أعمدة المعتزلة.

كما قد تشمل المنازعات الصراع القيمي في المجتمع العربي الإسلامي، وذلك ما سنراه في نوادر كتاب البخلاء حيث امتزجت قصصه بين الجد والهزل، ويكون التنازع فيها بين البخلاء أنفسهم، والخطاب الحجاجي في كتاب البخلاء يقوم على نظام لغوي يجمع بين استدلالية المنازعة، وحسن توظيف الروابط الحجاجية. وذلك بعرض الحجة بأسلوب ساخر، ولعل أشهرها المنازعة الترسلية بين سهل بن هارون وبن أعمامه، الذين ذموا مذهبه في البخل قال الجاحظ:« **أبي محمد بن رهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب، أصلح الله أمركم جمل شملكم (...) فإنه يعيب بفضل ما فيه عيب، وأول العيب أن نعيب ما ليس بعيب وقبيح أن تنه عن مرشدٍ وتغري بمشفقٍ..** ....»[3]

نصوص الجاحظ في هذا الكتاب يغلب عليها الطابع البياني بمعنى أنها أحاديث وأقوال ترد على لسان البخيل وينزع فيها إلى التنظير إلى مذهب البخل، فنراه يسعى إلى التفسير والتبرير إلى غاية إقناع المخاطب، وتنطلق تلك البراهين من بناء منطقي توظف فيها

---

(1)– الجاحظ، الرسائل، ج4 ، ص81 .

(2) –المصدر نفسه، ج4،ص 68 – 69

(3)- الجاحظ، البخلاء، تح، طه الحجاري، دار المعارف، الاسكندرية، مصر، ط7 ، د–ت، ص5 .

"عمليات عقلية الاستقراء والاستنباط والاستدلال والقياس" من تلك الحجج[1] مع نقد خصمه ونقض أقواله واتهاماته أو نصحه وإرشاده « عبتموني بقولي لخادمي أجيد عجنة خميرة كما أجدته فطرا، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه فقد قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لأهله أملكوا العجين فإنه أربع الطحينتين » [2]

فهنا يحاول إقناع الخصم، فيذكر قبل ذلك ما عيب عليه من بخل، فيحاول تبرير بخله فيصطنع لذلك نصا حجاجيا ومنهجا جدليا وبلاغيا لا يستهدف الإقناع فحسب بل يتوخى أيضا للاستمالة والتأثير ليجعل المتلقي ينخرط في حركته[3]

ذلك من خلال استشهاده بأقوال مأثورة عن القرآن الكريم أو السنة النبوية أو حكمة مشهورة « **عبتموني حين قلت للغلام: إذا زدت في الرقا فزد في الانضاج لتجمع بين تأدم باللحم والمرق ولتجمع الارتفاق بالمرقِ الطيبِ وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا طبختم لحما فزيدوا في الماء فإن لم يصب أحدكم لحما أصاب مرقا.** » [4]

كما نجد شاهدا آخر من هذا المصدر القيم الجامع لطباع البشر في ذلك العصر مزج فيه الجاحظ بين الجد والهزل، جاء في أخبار ابن المؤمل وقد جرى الحوار بينه وبين الجاحظ حول الزيادة في الخبز « **قلت [الجاحظ] : ومن فرض لهم الحضور وقد استضافهم البخيل وفيهم الجاحظ هذه الفرضية ومن جزم عليهم، أرأيت إن لم يشبع أحدهم رغيفا أليس لابد لهم من يعول على رغيف صاحبه أو ينتحي وعليه بقية أو يعلق يده منتظرا للعادة.؟ فقد عاد الأمر وبطل ما تناظرنا فيه قال: لا أعلم إلا ترك الطعام البتة أهون علينا من هذه الخصومة** » [5] ، فهنا قد تحولت دائرة الخطاب من

---

(1)–عبد الغاني عارف ، منارة اللغة العربية ، الجذع المشترك الثانوي تأهيلي ، جذع مشترك العلوم و تكنلوجيا ،د–ط ، مطبعة الجديدة ، II سطات ، الرباط المغرب ،2007 م ص 48

(2) – الجاحظ البخلاء ، ج1 ،ص 6

(3)– ينظر عبد الغاني عارف ، منارة اللغة العربية ، ص 49

(4) –الجاحظ ، البخلاء ، ج1 ،ص 6 .

(1) –الجاحظ، البخلاء ، ج1 ،ص44

مناظرة بين الجاحظ والمؤمل، إلى منازعة وخصومة حول ظاهرة البخل، فيعود هذا إلى الوازع العقائدي فلا سبيل للتذاكر والتباحث، بل السبيل إلى التهاكم والممارات واللجاج والحرب بين الخصمين[1]

فكتاب البخلاء كله خصومة بين الكريم والبخيل يتساجلان في فكاهة وتندر ورغبة في الضحك والإضحاك مع اخذ العبرة منها فليس الهدف منها الإقناع بقدر ما هو بالتندر بالكلام الجاد والحجاج المفحم لموضوع عادة ما يكون بسيطا.

كما يسرد لنا الجاحظ سلوك أفراد إزاء الخطاب مرهونا بحجة صاحبه مثل ما هو الحال مع نوادر أهل مرو، فيها احتجاج خارج المذهب بين أمم وشعوب فهنا المساجلة تقوم بين قيمة البخل الدخيلة عن العرب، وقيمة أصيلة الكرم أي تقوم المنازعة بين الشعوبيون* من الفرس والخراسانيين مع العرب « **قال حدثني أبو إسحاق إبراهيم سيار النظام: قال قلت مرة لجارٍ لي من أهل خرسان أعرني مقلاكم فإني أحتاج إليه قال كان لنا مقلى ولكنه سُرق فاستعرت من جار لي فلم يلبث الخرساني أن سمع نشيش اللحم في المقلى فشم الطباهج فقال لي كمغضب : ما في الأرض أعجب منك لو كنت أخبرتني أنك تريده للحم وللشحم لوجدتني أسرع، إنما خشيتك تريده للبقالي، وحديد المقلي يحترق إذا كان الذي يقلى فيه ليس بدسم، فكيف لا أعيرك إذا أردت الطباهج....** »[2]

فهنا المنازعة قامت في مقام شفوي بين متحاورين، فنجد البخيل يوهم خصمه بأدلة وحجج ثم يحاول التملص من تلك البراهين الواهية بعد إدراكه لطلب المقلى فيحاول تدارك الأمر ببراهين أخرى .

---

(2) –ينظر ، باشا العيادي ، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية ، ص 6

* الشعوبية هي حركة ظهرت في العصر الأموي اضطهدت من طرف الدولة الأموية فتعصب لمعجم من جراء ذلك المعاملة و برزت بشكل جلي في العصر العباسي

(3) – الجاحظ ، البخلاء ، ج1 ،ص 23

كما أننا نلمس هذا الشكل السجالي في أحد أكبر أمات كتب النثر للجاحظ ألا وهو كتاب البيان والتبيين، الذي أبرز في بعض مواضيعه خطاب التشييع وتتميز بعرض ما من شأنه أن يحط من قيمة الطرف المقابل للخصم وتستخدم الغاية للتقبيح[1]، فالجاحظ يعتبر أكثر المتساجلين استخداما لمصطلحات الشنعة والتشنع وذلك في إطار هجومه العنيف والقوي على خصومه أثناء الرد على الشعوبية وأصحاب المذاهب والملحدين ومن أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى والمناوية فتأجج النزاع والخصومة، ومن بين تلك المنازعات التي دارت بين الجاحظ والشعوبية حول العصا في مقدمة الجزء الثاني: « **أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية في طعنهم على الخطباء العرب وملوكهم، إذ وصلوا إيمانهم بالمخاصر، واعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القسي والعصا ... لولا الذي أملت ... لقد كنت بدأت بالرد عليهم وبكشف قناع دعواهم .** »[2]

فمن خلال الشاهد يصرح الجاحظ منازعة لخصومه كما يعلن لطعنهم والرد عليهم يقول:«... **مذهب الشعوبية ويتحلى باسم التنويه وبمطاعنهم على خطباء العرب لأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصم بالموزون والمقفى والمنثور الذي لم يقف وبالأرجاز عن المتح وعند مجاثات الخصم وساعة المشاولة ونفس المجادلة والمحاورة..** » [3]

فهنا يوضح الجاحظ أنه سينازع الشعوبية وأفكارهم، كما يعلن لنا من خلال هذا الشاهد عن بنية المساجلة الحربية القائمة على الرد والطعن، هدفها إبطال الشعوبية التي تنقل أرائها في طعنها للعرب

---

(1)– باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص58 .

(2)– الجاحظ، البيان والتبيين، ج2 ، ص5–6 .

(3)– المصدر نفسه، ج3 ، ص6 .

« قالو: والخطابة شيء في جميع الأمم وبكل الأجيال إليها أعظم الحاجة، حتى إن الزنج مع الغفارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج لتطيل الخطب، وتفوق ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى أغلظ وألفاظها أخطل وأجهل .. »[1]، وقد رأت الشعوبية في مقولتها هذه أن العرب وخطاباتهم التي يدعونها ليست بالأمر المشرف ولا المميز لحالهم من بين الأمم، إذا لا تخلو أمة إلا ولها منها، حتى أن الزنج لكل ما وصفو من صفات قبيحة كالغباوة والحمق والجهل إلا أنهم كانوا يطيلون الخطب مما جعل الجاحظ نار الغيرة تتأجج بداخله على العرب والدفاع عن قومه و على لغتهم وبيانهم[2]. فنجده أعد العدة للرّد عليه « **وأخذ على عاتقه أن يقف في وجه هؤلاء وأن يفند حججهم، ويثبت للعرب كل فضيلة وأن البيان صفة خصهم الله بها** » [3]

فيأتي في شاهد آخر للرد على مطاعنهم قائلا : « **وجملة القول أننا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس فأما الهند فإنما لهم معاني مدونة، وكتب مخلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا عالم مصوف وإنما هي كتب متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة.**»[4]

أثبت الجاحظ في هذا الشاهد حججا تثبت بيان العرب على غيرهم من الأقوام .

وهكذا يتضح لنا أن منازعة الخصوم تبنى أدت على ذكر مطاعن المتلقي أي الخصم ثم الرد عليه، وهذا ما أشار إليه أبو حيان التوحيدي: « **إن آفة المنازعة ثوران الطبع وهيج النفس وعصبية الهوى . »** [5]

---

(1)-الجاحظ، البيان والتبيين ، ج3 ، ص12-13 .

(2)– فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، نقلا عن، ليلى جغام، الحجاج في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ص 194

(3)– المرجع نفسه، ص194 .

(4)– الجاحظ، البيان والتبيين،ج3 ، ص15 .

(1) – أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر،نقلا عن، باشا العيادي، السجال في الأدب العربي، أشكاله ووظائفه، ص202 .

كما تكون حقلا لاستخدام الشتم والتكفير أحيانا وهو ما أبرزه الجاحظ حين قال: « **ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوبا ممن يرمي خصومه بالكفر.** »[1]

تدور المنازعة في محفل يشهد فيه الحضور على انقطاع الخصم ومطالبة بمعاقبته كما قد يخفت هذا النوع السجالي شيئا فشيئا ليتحول إلى شكل سجالي، آخر فيتحول فيه الخصام إلى تكافئ وتعاون للوصول إلى ما هو في حكم الحقيقة والصواب.[2]

2/ مناظر الأكفاء البلغاء:

عُرف فن المناظرة عند العرب قديما وحديثا وقد تنوعت مجالاته واختلفت مواضيعه وكانت عادة ما تعقد في المساجد وأمام الجمهور، إذا يتحاور طرفين متكافئين في محفل عظيم[1].

(2)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص120 .

(3)– باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، ص202 .

«إذ يتبارى المتناظرون على إبراز قدراتهم الجدلية والخطابية التي تهدف إلى كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معا حتى تتقبل ويوافق على القضية أو فعل موضوع الخطاب»[2]

فالمناظرة تقوم على إبطال فكرة المناظر الثاني للأول ومجادلته وإقناعه في رأيه ووجهة نظره وإبراز قدراته على المناظرة وذلك من خلال إقناعه على قضية التي هم يتناظرون من أجلها، ويعرفها الميداني يقول:« **وعُرفت بأنها وهي محاورة فريقن حول موضوع لكل منهما وجهة نظر تخالف وجهة نظر الفريق الآخر فهو يحاول إثبات وجهة نظر وإبطال وجهة نظر خصه مع رغبته الصادقة في ظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره.»** [3]

فيما يرى شوقي ضيف « **أن جنس المناظرة قلما لقي عناية من المؤرخين للأدب العربي ع أنه من أهم أجناس الخطاب النثري التي اشتغلت الناس على اختلاف طبقاتهم.** » [4]

فيما حدد الخليفة المأمون(ت 218 هـ) آداب المناظرة بقوله لبعض المتناظرين « **الشتم عي، والبذاءة لؤم، وقد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل وقفناه، ومن ذهب عن الأمر حكمنا فيه بما يجب فجعلنا بينكما أصلا فإن الكلام الذي أنتم من الفروع فإذا افترعنا رجعتما إلى الأصول.»** [5]

ومن هنا يرى صاحب البرهان أن النقاد قد وضعوا للمناظر شروطًا ترجع إلى **«المتناظرين سموّها أدب الجدل منها، أن يكون قصد المتناظران إظهار الحق والصواب**

---

(1)– باشا العيادي، السجال أشكاله ووظائفه، ص 202

(2) –حبيب أعراب ، "الحجاج الاستدلالي و الحجاجي" ، ص 109 –110

(3) –الميداني عبد الرحمان حسن حنبكة ،ضوابط المعرفة و أصول الاستدلال و المناظرة ، مكتبة العلم، جدة ، السعودية ، د ط ، ص 371

(4) – ينظر ، شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر، د–ط، 1982 ، ص 457

(1)– ياقوت الحموي ، معجم الآداب ، نقلا عن مصطفى البشير قط ، مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، د،ط ، 2010 ، ص 202

من غير مراء أو تكبر أو رياء، ونبذ التعصب للآراء من غير وجه حق واجتناب الهوى وأن لا يقبل المتناظر قولا إلا بالحجة ولا يرده إلا بعلة، وأن يتجنب المناظرة أوقات التي يتغير فيها مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال لأن من شأن ذلك أن يوقعه في الخطأ وأن يتجنب الكذب والضجر وقلة الصبر، وأن يكون منصفا غير مكابر وأن يلتزم الهدوء والوقار، وأن لا ينساق وراء استفزاز خصمه، ولو كان صغيرا المحل في الجدل وأن يكون عالما بأسرار اللغة ودقائقها حتى يضع كل لفظ في موضعه، ويعبر عن كل معنى مما يليق به من الألفاظ. » [1]

وفي هذا الشاهد يتضح لنا أن النقاد وضعوا شروطا للمتناظرين يوجب عليهم إتباعها حتى لا يخل بصناعة الكلام وصفا كان أو مجيبا أو سائلا.

كما أن أدب الجاحظ يزخر بعدد كبير من المناظرات التي وظفها في مؤلفاته في معالجة موضوعاته، كما وظف غيرها من المقامات غير المتناهية التي صارت جلّ مكتوباته يغلب عليها طابع سجالي، فيعتبر المناظرة صناعة كلامية أساسها « **التمثيل بين الشيء ونظيره**»[2].

فقد وضع لها قواعد وأسس تقوم عليها التي يوجب على المتكلم المناظر اتباعها في مناظرته وما يجب أن ينأ عنه حتى لا يشين نفسه وسط المتناظرين.[3]

ومن أشهر المناظرات التي ذكرها الجاحظ في أماته التي قامت بين صاحب الكلب وصاحب الديك في كتاب الحيوان، وهي حوار طويل. يقول الجاحظ: « **ما يبلغ من قدر الكلب ومن مقدار الديك أن يتفرغ لهما شيخان من جلة المعتزلة و هم أشرف أهل الحكمة**» [4] فمن خلال الشاهد يوضح لنا الجاحظ تكافؤ المتناظرين في العلم و المعرفة

---

(2) –ابن وهب ، البرهان في وجه البيان نقلا عن مصطفى البشير قط مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم ، ص103 .

(3) –الجاحظ ، الحيوان ، ، ج1 ،ص 216

(1)– باشا العيادي ، "السجال في الأداب العربي دراسة الأشكال و الوظائف"، ص 102

(2)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص216 .

وفي الانتماء المذهبي ، فهما من المعتزلة و من جلة علماء الكلام يشتركان في كثير من المسلمات وهكذا تكون المناظرة داخلية أي داخل المذهب الواحد فيقول شوقي ضيف قي هذا الصدد " و قد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان المناظرة انعقدت بين المعبد والنظام في الكلب أيهما أفضل ، وظل يور ،أدبه كل منهما في صورة رائع.

وهي صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصاب هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم وتصحيح لمقدماتهم وتصريف أساليبهم وألفاظهم ، وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ في المساوئ الدين ومحاسنه و منافع الكسب و مضاره ، فما بالك بما يجري بينهم في مسائل الدين و استقصاء كل مسألة وجمع معانيها و ترتيب أفكارهما وألفاظها "[1]، حيث يرى شوقي ضيف أن المناظرة بين صاحب الكب و الديك غلب عليها تكافأ بين الطرفين من حيث البيان و الأساليب ، وتساوت بينهم الحجج بذكر كل واحد منهما خصال حيوانه الآخر فكان بينهما تساوي في الطرح مما جعلها تغيب نزعة الغلبة ، وإظهار خصال حيوانه وإبطال فضائل الحيوان الأخر الذي ينتصر له خصمه فيقول الجاحظ : " **فأما الذي شهدت أنا من استحق بن اليسار النظام فانا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبلة و تفد منه شيأ و ألح عليه كلب من شكل الكلاب الدعاء ، وكره أن يعد وفيغريه و يضربه (...) فلما جزناه حده و تخلصنا منه قال إبراهيم في كلامه له كثير يعد خصاله المذمومة فكان أخر كلامه أن قال : " فان كنت سبحا فاذهب مع السباع ، وعليك بالبراري و الخياض و ان كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم.**[2]

ففي هذا الشاهد نلاحظ صاحب الديك أي النظام للكلب و كرهه له و نرى في هذا الشاهد " قال صاحب الكلب :" **قد قال أبو عبيدة ان مما يشبه من خلقه خلق الكلب صورة شدقه ، وطول لسانه و كثرة ريقه و انحدار قصه*** **و يسوغ ضلوعه و طول ذراعيه و رحب جلده و لحوق بطنه ، وثال طفيل الغنوي يصف الخيل**

تباري مراخيها الزجاج كأنها ضراء أحست نيأه مكسب[3]

---

(1)– شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8 ، 1980 ، ص130 .

(2)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص281

*القص و القصص: الصدر

(3)- المصدر نفسه ،ج1 ، ص 276.

هنا نرى صاحب الكلب يدعم حججه بأبيات من الشعر حتى يدحض خضمه فيضيف قائلا في نفس السياق و قال طفيل أيضا :

كأن على أعطافه ثوب مائع وان يلق كلب بين لحميه يذهب[1]

فرد عليه صاحب الديك مناظره و محاورة قائل : **وأين يقع البيت و البيتان و الثلاثة من جميع أشعار العرب ؟**

قال صاحب الكلب : «**لعلنا إذا تبعنا ذلك وجدناه كثيرا و لكنك تقدمت في أمركم تشعر بالذي تعنى فتلقط من الجميع أكثر مما التقطت**» [2]

حيث يرى شوقي ضيف :« **أن هذه القدرة البارعة في الجدل و في تأليف الحجج و الأدلة ، إنما تدل على ما أصاب العقل العربي حينئذ رقي جعله يستقصي ما يحدث على أحسن استقصاء و أدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق و التعمق و كان يصحب ذلك كثير الظن و السفسطة التي تدل على ترف العقل و ارتفاعه عن الآراء الشائعة** »[3] .

هذا مما يجعل المناظرة في هذا الشكل السجالي تغيب التحكيم إذ يظهر أن الرهان يقوم على تأكيد عظمة الخالق من خلال البحث في الحيوانات .

كما يرى باشا العيادي أن غياب مبدأ التكافؤ في الحوار يذهب بخصوصية المناظرة[4]

(1)- الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص276 .

(2)– المصدر نفسه، ج1 ، ص276 .

(3) – شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1 ، د–ت، ص462 .

(4)– باشا العيادي، "السجال في الأدب العربي أشكاله و وظائفه"،ص203 .

فطرفا المناظرة لابد أن يكون متكافئين و إن كان ليس متكافئين فليست مناظرة [1] .

كما أننا نجد الشيخين يتحاوران بذكر كل منهما لخصال حيوانه و مدحه مع ذم حيوان خصمه " و **الكلب على ما فيه يعرفه صاحبه ، وهو السنور يعرفان أسمائهما يألفان موضعها و إن طرد ربعا صبرا وان أمينا احتلا و الديك يكون في الدار من لدن كان فروجا صغيرا إلى أن صار ديكا كبيرا وهو ان خرج من باب الدار أو سقط حائط من حيطان الجيران أو على موضوع من المواضع لم يعرف كيف الرجوع وان كان يرى منزله قريبا و سهل المطلب يسرا لا يذكر ولا يتذكر**"[2]

فنرى هنا أن كل من المتناظرين يذكر خصال حيوانه ،كما لم ينف عيوبه بل أبرزها أيضا فالرهان تتبع الحركة السجالية من خلال المعرف المنطقية و العقلية في خلق الله .كما قد عمل على استشهاد بالأمثال و الأشعار كليهما فتطول المناظرة إلى حد الإشباع فيجعلنا فالجاحظ من خلال الحيوانات إلى حياة العرب و حضارتهم بالنسبة لكتب فيما يمثل الديك الحضارة الفارسية فالقصص الدينية و الأساطير و الخرافات[3] ، هذا من ناحية من ناحية أخرى نجد أهم مميزات في المناظرة و هي القصد ،" فهي (المناظرة) تهدف إلى إظهار التعاون و الصواب بين المتحاورين للوصول إلى حقيقة فيقول الجاحظ **« فليس القدر الكلب و الديك أفسهما و أثمانهما و مناظرهما و محلهما من صدور العامة أسلفنا هذا الكلام و ابتدأنا بهذا القول ... و إنما ننظر فيهما من الدلالة عليه و على إتقان وضعه و على عجيب تدبيره .... فغشي ظاهرها بالبرهان و عمى باطنهما بالحكم وهيج على النظر فيهما و الاعتبار بهما ...»**[4]

---

(1)– مزاري زينب، المناظرة في القرآن الكريم بحث في الأساليب، دار علي بن زيد، يسكرة، الجزائر، ط1 ، 2013 ، ص25 .

(2)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص196 .

(3)– باشا العيادي، " السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، ص203 .

(4)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص256 .

من خلال هذا القول يتضح لنا أن كل من المتساجلين عليهما بالتعاون لإظهار الحقيقة و التسليم بها و بإعمالهما للعقل .

كما أننا نلاحظ أن المناظرة تبدأ بمجموعة من الأمثال صاغها الجاحظ على أفعال التفضيل في استرسال لاقت انتباه محققا مقابلة بين ثنائيات ترمز إلى الإحسان و الإساءة و إلى الملومين و المشكورين مثلما جاء في الشاهد :« **يقال أجرأ من الليث و أجبن من الصفرد ، و أسحن من لافظة ، و أصبر على الهون من كلب و أحذر من عقعق ، وأزهى من الغراب ، و أصنع من سرفة ، و أظلم من حية و أعذر من ذئب...** »[1]. فنرى أن هذه الأمثلة قائمة على أفعال التفضيل و هي تعود كلها إلى التشبيه فكأن الجاحظ قام بعملية تحويل لأشهر تشابيه العرب في أشعارهم صيغت على منوال التفضيل و هذا ما تؤكده كتب البلاغة القديمة من حيث أجود تشبيهات العرب يقول أبو هلال العسكري « **وأما الطريقة المسلوكة في التشبيه و المنهج القصد في التمثيل عند القدماء و المحدثين فتشبيه الجواد بالبحر و الجبان بالصفرد (...) و شهر قوم بخصال محمودة فصاروا فيها أعلاما فجرو مجرى ما قدمناه كالسموأل في الوفاء و حاتم في السخاء (...) وشهر آخرون بأضداد هاتها لخصال فشبه بهم في حال الذم كباقل في العي و هنبقة في الحمق ...**».[2]

فأضحى المثل من أهم مكونات المناظرة الأدبية فيتخذ حجة عند تقديم الدعوى و الطعون و الرد فيخلص من خلالها إلى مسألة المدح و الذم و يترتب على ذلك أن البحث في مسألة المدح و الذم و المحاسن و المساوئ ليس فيه تفضيل للحيوان على أخر ، و إنما الغاية من هذه المساجلة الكلامية إظهار حكمة الخالق[1] .

ومن بين هذه الحجج التي غلبت عليها أفعال التفضيل و استدل بها كلا المتساجلين في الأمثال يقول صاحب الديك : **ومما ذكر به الكتب من أكله العذرة قول الراجز :** "

(1)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص269 .

(2) – أبو الهلال العسكري، الصناعتين(الكتابة والشعر)، تح، علي محمد يحياوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،د–ط، 1989 ، ص 209 .

أحرص من كلب على عقي صبي ...) و يقال أبخل من كلب على جيفة و يقال بعضهم في الكلب: الجيفة أحب إليه من اللحم الغريض "[2] .

فرد عليه صاحب الكلب بنفس الأسلوب " **إن كنتم تستسقطون الكلب وتستفسلونه بهذا وأشباهه ، فالجيفة أنتن من العذرة ، و العذرة شر من القيئ و الجيفة أحب الى أشراف السباع و رؤسائهم من اللحم العبيط الغريض الغض و الأسد سيد السباع ويأكل الجيفة**[3] فنلمس أنه هناك انتظاما في استعمال أفعال التفضيل سواء في الدعوى أو الرد فقد اتبع صاحب الديك نسقا واضحا في تقديم معنى البخل و ذمه بتكثيف مرادفاته في التدرج من الأقل إلى الأكثر فيما يتعلق بالشر و النتانة ، **أحرص +أبخل +الجيفة أحب إليه من اللحم الغريض (عصي الصبي + الجيفة + الجيفة) .**

انه العربي يرميه الأعجمي بالبخل و أكل الجيفة ، فالمعروف أن العرب كأنما يفعل ذلك لقلة المؤونة في الصحاري و البوادي ، هذا ما دعم تأويل رمزية الكلب قي هذه المناظرة ما كان في رد صاحبه من تدرج منطقي في أكل الجيفة ، فالجاحظ هنا مدافعا عن العرب باستخدامه الحجج منطقية و أكثر إقناعية و نجاعة .

وفي وحدة سجالية ثانية يرد صاحب الديك على صاحب الكلب ، ويؤدي الوظيفة الثانية التي كان يقوم بها صاحب الكلب وهي الاسجال على الخصم أي أن الطرفين يتبادلان في هذه المناظرة الدعوى و الرد ، فيناقش أحدهما الأخر في أقواله و حججه ، ومن خصائص الرد نلمس إعادة قول الخصم بعد صاحب الديك قول صاحب الكلب " **وقد زعمتم أن جرة السعير أنتن من قيئ الكلاب وأنه أنتن من الشلطو إنما مثل الجرة مثل الريق ... فإنما مثل القيئ مثل العذرة لأن الريق الذي زعمتم ما دام في فم صاحبه ألذ من السلوى و أمتع من النسيم أحسن موقعا من الماء البارد من العطشان المسهوم ...**"[4] فهو استعمل أفعال التفضيل بكثافة في الدعوى و الرد .

---

(3) – ينظر، باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص251–252 .

(1)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص228 .

(2)– المصدر نفسه، ج1 ، ص228 .

(1)– الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص229 .

يكمن الرد في جرة البعير أنتن من قيئ الكلاب / و أنه أنتن من الثلط .

فيما يكمن الاسجال ، أشع من النسيم / و أحسن موقعا من الماء البارد .

جاءت صيغة التفضيل من مطلع كل فقرة في الرد تفيد المقارنة و تكشف القياس الخاطئ الذي تعمده صاحب الكلب حين جعل الجرة أنتن من القيئ و الصواب أن القيئ يقاس بالعذارة لا بالجرة و الجرة تقاس بالريقي لا بألقي ، فالحجة هنا أصبحت شبهة وأدت إلى المغالطة ،إذ ايقن صاحب الكلب من صدق ما قال خصمه و لم يراجعه في قياسه الجديد .

وحاصل القول أن المناظرة من أبرز أشكال السجال في أدب الجاحظ تتحدر بطبيعة المناظرين و القصد منها الوصول إلى الحقيقة و التسليم بها من خلال الحيوانات و إظهارة القدرة الإلهية ولنشر المذهب الاعتزالي" ويقوم الطرفان في المناظرة بإجراء حوار يمثلان فيه بين شيئين و يوازنان بين محاسنهما و مساوئهما ، و يكون ذلك في محفل خاص ويعتمدان الحجة، و البرهان، و يبتعدان عن الشبهة، و المغالطة، وعن السب، و الشتم والتكفير، و بذل الجهد من أجل توضيح الغموض من الحقيقة بالتعاون على ذلك "[1] .

هذا بشأن المناظرة الداخلية التي كانت تجري بين المتناظرين من نفس المذهب فيما كانت هناك المناظرات الخارجية التي سنراها في الشكل السجالي الأخير.

3/ مفاوضات الإخوان :

إذا كانت منازعة الخصوم تقوم بين أطراف غير متجانسة من حيث الدين و المذهب السياسي أو الكلامي .

(2) - ينظر باشا العيادي ، "السجال في الادب العربي أشكاله و وظائفه" ، ص203.

فان مفاوضة الإخوان هي شكل من أشكال السجال تقوم أيضا على الحجاج بين طرفين ولكن غير متكافئين معرفيا ، وان كانت متجانسة تربط بينهما علاقة تواصل و تأدب كياسة في الحوار[1].

فيما يرى العمري " اتخذ الحوار بين الأنداد شكل المناظرة لنصح و الإرشاد ... حول قضية الخلافة و شؤونها و اعتمدت النصح و المشاورات والمناظرات "

كما قد عبر الجاحظ من هدف هذا النوع السجالي في عدد من مؤلفاته بجملة شهيرة يقول:**«و إنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك »**[2] فكانت مفاوضة الإخوان شكلا سجاليا غايته تمرين العقل بما تتيحه من معرفة منطقية برهانية ، و تكون مفاوضته الإخوان خطاب سجالي بما يتيحه من معرفة منطقية برهانيه ، وتكون هنا مفاوضة الإخوان خطاب سجالي و حرب بعيد عن معنى الرغبة في التباري و التنافس بل هدفها إبراز المعرفة .

ومن هذا المنطلق سنحاول أن ندرج بعض المذاكرات و المحاورات التي تضمها أدب الجاحظ ،محولا إياها إلى ردود " حيث نلمس في هذا الشكل أن المساجلة تختلف عن الشكلين السابقين ،أي (منازعة الخصوم و مناظرة الأكفاء) و من بين نماذج ها الشكل نجدها في كتاب البخلاء ، في موضوع البخل و طرقه العجيبة يقول الجاحظ :**« قال أصحابنا من المسجديين : اجتمع ناس في المسجد مما ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع و قد كان هذا المذهب صار عندهم الكسب الذي يجمع على التحاب و كالحلف الذي يجمع على التناصر و كانوا إذا التقوا في حلقهم تذكروا هو هذا الباب و تطاردوه و تدارسوه»**[1]ففي هذا الشاهد ثلاثة مصطلحات تحلينا لهذا الشكل السجالي وهي المذاكرة، والمطارحة، والمدارسة فهي ككل تؤسس لمناقشة تجري في ظل

---

(1) – باشا العيادي ، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه" ، 203 ص .

(2) – الجاحظ الرسائل ،ج1 ، ص 62 .

(1) – الجاحظ البخلاء ،ج1، ص62

التعاون، والتأدب ، وقد أوضح التوحيدي ذلك في قوله « و**في سقط التنافس وقع التوانس و زال العتب و ذهب القبيح و نبت الحسن»**[1] .

كما أن هذا الشكل السجالي لا يقل أهمية على مساجلة الخصومة و لكنها تتميز بأنها تؤسس لمقام التدريس لا لمقام رفع التلبيس "[2] فلهذا يغلب عليها عدم التغلب، والفلج والقطع ويتحيز هذا الشكل السجالي في مستوى المقال بأن كل طرفا فيها يؤدي عادة وظيفة واحدة إما أن يكون سائلا / معترضا / أو مجيبا /رادا[3] .

وهكذا يتضح لنا أن المتساجلين في هذا الشكل لا يتبادلان الأدوار كما في الشكلين السابقين وهذا يؤسس إلى علاقة تعليمية بين الأستاذ و تلميذة عادة .

والملاحظ على هذا الشكل أنه يغلب عليه صيغة السؤال التعليمي، صياغة خبرية تأتي مرتبطة بالتعريفات، أو المقارنات التي يعقدها السائل و نطلق عليها السؤال السجالي يقوم على التعاقب السؤال و الجواب ، فتكون وحدات سجالية متوالية منشئة محاورة تسود فيها علاقة التعاون بين المتحاورين [4].

ويتجلى هذا البناء السجالي خصوصا في عدد من الرسائل من ضمنها رسالة " المسائل و الجوابات " رد فيها الجاحظ عن إبراهيم النظام و أتباعه و أقامها على سؤال وجواب ، فكان يورد السؤال و يجيب الطرف الأخر .

يقول :"**و كلكم إذا سأله سائل ، مايؤمنك أن تكون على باطل قال :لأني مستشهد للضرورات (....) و مع ذلك إذ وجدناكم بعده ، قد رجعتم على أقاويل كثيرة بعد أن كان**

---

(2) – أبو حيان التوحيدي ، البصائر و الذخائر ، نقلا عن باشا العيادي في المناظرة في الادب العربي دراسة أسلوبية تداولية ، 299ص.

(3) – أبو حيان ، الامتتاع و المؤانسة تح أحمد و أحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ،د ت ، 119/1

(4) – باشا العيادي ، فن المناظرة في الادب العربي دراسة أسلوبية تداولية ، ص299 .

(5)– ينظر ، نفس المرجع ،ص300.

جوابكم لمن سألكم ، ما يؤمنكم أن تكون على باطل أو تقولوا : لأننا استشهدنا لضرورات (...) و نحن لو سألناكم عما رجعتم عنه (...) لم يعد جوابكم استشهاد الضرورات "[1].

فالناثر هنا يحدد وسيلة الخطاب في هذه المحاسبة و هي تعاقب السؤال و الجواب بطريقة مباشرة تفاعلات الكلامية فهو يؤدي وظيفة حجاجية من أجل أحكام العقل و منطق لوصول إلى المعرفة من خلال المسائلة تقوم على مبدأ المحاورة و تظهر أن المسؤول وكأنه في امتحان حقيقي .

–ومن سمات هذا الشكل أن المسؤول و كأنه في امتحان حقيق .

– و من سمات هذا الشكل السجالي قوة التأثير و ذلك ما نجده في هذا الشاهد الموالي الوارد في الرسائل :" **قال أحمد بن أبي داود لأحد المعاندين في حضرة المعتصم أليس لا شيء لا قديم أو حديث ؟**

قال : نعم

قال أوليس القرآن شيئا

قال نعم

قال : أو ليس لا قديم إلا الله

قال :نعم

قال : فالقرآن إذا حديث

(1)– الجاحظ الرسائل ،ج4 ، ص56

قال : ليس أنا متكلم [كذا] و كذلك كان يصنع في جميع مسائله ، كان يجيبه في كل ما سأل عنه حتى إذا بلغ الخنق و الموضوع الذي قال فيه كلمة واحدة يرى منه أمر به قال ليس متكلم (...) "[1] .

نلاحظ في هذه المفاوضة التي دارت بين أبي داود و بين أحد المعاندين في حضرة المعتصم ، تعاقبا السؤال و الجواب بصفة منتظمة فكل واحد من المتحاورين يؤدي وظيفة واحدة فالأسئلة و الأجوبة تتعاقب سريعا في الزمن .

وقد قامت المساجلة في مسألة كلامية خلافية اتخذت بعدا سياسيا ، وهي مسألة خلق القرآن فالقول يقدم القرآن فيه كفر و البراءة من القائل و هذا ما علق عليه الجاحظ في أخر المناظرة على سبيل الكلام أو الخطاب الواصف ، " **أن قال كلمة برئ منها أصحابه** "[2] في المساجلة دال على التقرير و معناه حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه "[3] أي أن هذا الشكل السجالي غايته الوصول إلى المعرفة الحقيقية .و ينجز به المتكلم عملا حجاجيا موجها " .

و ذلك من خلال تقديم للأخر جوابا نهائيا يقر من خلاله النتيجة فقد استخدم المساجل الأول أداة واحدة لسؤال هي حرف الضمرة تتسم في جل وحدات المفاوضة حتى أضحت أداة

(1)– الجاحظ الرسائل ،ج 3، ص 293

(2)– المصدر نفسه ، ج 3 ، 294

(3) – ابن هاشم ، مغني اللبيب ، نقلا عن ، باشا العيادي ، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية ، 317 ص.

حجاجية ، لكي يتحقق ضرب من التوازن بين المسائل و المسؤول و ذلك من خلال انحدار المسؤول من قيمة الاستعلاء إلى التقهقر و اندحار أمام قوة الإجابة ، بنعم أو لا .

وبقي يتلقى الهجوم بالسؤال و يحاول السيطرة عليه من خلال التصديق أو التقرير .

والملاحظ على ثنائية السؤال و الجواب مرتبطة بمقام شفوي تظهير في تفاعل كلامي خصائص المساجلة[1].

ويتضح لنا أن هذا الشكل السجالي والشكلين السابقين من خلال اختلاف بين المتساجلين يؤدي وظيفة واحدة.

ومفاوضة الإخوان تتحيز في مستوى المقال بأن كل طرف فيما يؤسس لحوار يكون مبني على صيغة السؤال و الجواب و يكون أحدهما فيها لما سائلا أو معترضا أو مجيبا مما يفرض في نهاية المساجلة الوصول إلى الحقيقة و تنمية المعرفية بطريقة منطقية بإعمال العقل .

ونخلص من هذا الفصل أن اختلاف أطراف المساجلة حسب درجة الاختلاف بين الطرفين المتساجلين و لكنها في الحقيقة كثيرا ما تتداخل

وحتى تكافؤ الأدلة في الحوار حصلت مواطنة في صميم المساجلة كما أنها قد تنتهي بتحكيم أو تغليب طرف على أخر .

[1(1)]– باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص317

الفصل الثاني: وظائف السجال في أدب الجاحظ

1/ الوظيفة الاجناسية

2/ الوظيفة الاقناعية

3/ الوظيفة الايديولوجية

وظائف السجال في أدب الجاحظ:

كان فن السجال وأشكاله المتنوعة في مصادر الجاحظ ممتعا وثريا حقا، فهو يأخذك معه ويشدك شدا عبر دروب طويلة ممتدة ومتشابكة في حرب كلامية تصعد بها جبلا شامخا صعب المرتقى وتنزل فيها وديا وارف ظلال المعرفة، طيب الملتقى، يجعلك تجالس معه جلة شيوخ العلماء والأدباء من زعماء نحلة المعتزلة، حيث تجعلك تلك المساجلة بين أطرافها وثناياها ترحل إلى عالم من الصراعات الفكرية والعقائدية كل يريد أن يثبت وجوده ودحض الأطروحات المناوئة له فتنتهي إلى غلبة طرف دون آخر، هذا ما يجعلنا نتساءل:

ما وظائف السجال في أدب الجاحظ؟

ومن خلال اطلاعنا على أدب الجاحظ تتجلى لنا ثلاثة وظائف سجالية بارزة في أدبه كانت كالآتي:

1/ الوظيفة الأجناسية:

إن الدراسة الأجناسية الأدبية يتعين عليها أن تجد لكل جنس سمات ينفرد بها، فيكون تعريفها عند "محمد القاضي" "إذا الأجناس مظاهر جمالية تنشأ في سياق تاريخي معلوم تتطور وتموت ولكنها في كلتا الحالتين تتسرب شظايا في مسام الأجناس اللاحقة وتسري فيها سريان النسق(...) من ثمة كانت الحاجة الماسة إلى دراسة الأجناس دراسة زمانية آنية معا".[1]

ويرى عبد الفتاح كيليلوط:"باعتبار الجنس الأدبي شأنه شأن العلامة اللغوية عند دوسوسير لا تبرز خصائصه إلا من خلال تعارضه مع خصائص أجناس أخرى".[2]

---

[1] - محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، نقلا عن محمد عبد البشر مسالتي، القراءة الأجناسية المعاصرة لسرد العربي القديم، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، د ت، ص4.

[2]- رشيد يحياوي، "نظرية الأنواع الأدبية، مجلة الفكر العربي المعاصر"، عدد 76،-77، جوان 1990، ص126.

كما نجد أحمد زكي يقول في هذا الصدد: "بان دراسة الأنواع إنما تقوم على عنصر الزمن للكشف عن تأثر اللاحق بالسابق رأيا أحاديا الجانب لأن التحول أمر مهم لهم وليس وحيد"[1]، فيوجب على المتلقي أن يكون ناقدا وعليه "مطالب بأن يجعل مفهوم الجنس حاضرا في ذهنه عاملا في نتائج بحثه ومكيفا لأساليب ملحوظة ومحدد لوظائفها ومتكيفا".[2]

فمن خلال هذه التعريفات نجد أن هذه الطائفة من الدارسين يهونون المضمون مقدرين أن المضامين منتقلة بين الأجناس معلومة ومضمونة أو مضامين مخصوصة، لذلك يجعلون الشكل والأسلوب ركيزتين أساسيتين من ركائز الجنس الأدبي.[3]

فلنظرية الأجناس محاسن تتمثل فيما يقول "غراهم" هو المبدأ الصحيح الضروري القائل بأن كل نوع أدبي يقدم درجة إشباع خاصة به، يعمل حسب مستواه الخاص به، كما أنه له إجراءه المناسب له".[4]

أي أن معيار الجنس الأدبي يسمح للمتلقي قراءة النص قراءة صحيحة فليس له أن يطالبه ما ليس بخصائص ماهيته، فكل نص يفتح لقارئه أفقا جماليا ليصبح معيارا موجها لقراءة.

فمن خلال هذه الإطلالة التي قمنا بها في نظرية الأجناس الأدبية عند الدارسين، قد مكنتنا الوقوف على أجناس أدبية جديدة في أدب الجاحظ والتي كانت أماته حافلة بها مما جعلته مبدعا لها.

أ) الحجاج:

---

(1)- المرجع نفسه، ص126.

(2)- محمد الطرابلسي، بحوث في النص الأدبي، دار العربية للكتاب، تونس، دط، 1988، ص188.

(3) – محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، نقلا عن محمد عبد البشر مسالتي، القراءة الأجناسية المعاصرة لسرد العربي القديم، ص5.

(4)- غراهم هو، مقالة في نقد، تر: محي الدين صبحي، لمس لرعاية الفنون والآداب وعلوم الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، دت، ص103.

حرص الجاحظ على وضع جنس جديد في الأدب وتحديد أسسه النظرية وهو "أدب الاحتجاج"، **فقد قسم الأدب في كتاب البيان والتبيين على لسان سهل بن هارون خطبة ورسالة وحديثا واحتجاجا يقول: "لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جميلا جليلا (...) وكان الآخر قليلا قميتا (...) ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الذميم على النبيل الجسيم..."**.[1]

ففي هذا الشاهد أخرج الاحتجاج من دائرة الخطابة، وجعله فن من فنون النثر الأدبي مستقلا بذاته.

فضلا عن ذلك بتحديد بعض الأشكال عن حديثه عن واصل بن عطاء من استقلال الاحتجاج عن غيره من فنون النثر الأدبي. "**ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم...**".[2]

وقد تكون شخصية واصل بن عطاء سببا أساسيا في نشوء هذا الجنس الأدبي في مؤلفات الجاحظ واندراجه ضمن فنون الكلام، يقول"**وقد كتبنا احتجاج من زعم أن واصل بن عطاء كان غزلا واحتجاج عن من دافع عنه...**"[3]، بل لعل هذه الشخصية التي عرفت بمهارتها في الاحتجاج ألهمت الجاحظ الحديث عن هذا الفن، وكيف لا يكون ذلك وواصل بن عطاء زعيم المتكلمين ورأس صناعة الكلام. أفلم تكن مناظرته مع عمر بن عبيد في مجلس الحسن البصري، ظهر خلاف ومناظرة بينهما حول مرتكب الكبيرة.

وقال جماعة الخوارج بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر فقال واصل: **أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر بل هو بمنزلة بين المنزلتين فطرده الحين من مجلسه فاعتزل**

---

(1)- الجاحظ، البيان، والتبيين، ج1, ص89.

(2)- المصدر نفسه ، ج1, ص 15.

(3)- الجاحظ ، البيان و التبين،ج1 ، ص 32-33.

عنه[1]، فكانت هذه أول مناظرة في تاريخ الفكر الاعتزالي وأشهرها وكانت سببا لنشوء المعتزلة وفاتحة للاحتجاج الكلامي.[2]

فنلمس الجنس الحجاجي في أدب الجاحظ وبالأخص كتاب البيان والتبيين قد طغى عليه بشكل شاسع ويتضح هذا في مساجلة قائمة بين أنصار الصمت المعترضين على أصحاب البلاغة والخطابة، فيبرز فيها الحجاج من خلال تقديم براهين دقيقة تجري في مستوى فكري رفيع يلاحظ فيها دفاع الجاحظ المستميت على مصالح العامة، فصمت لا يمكن أن يكون أفضل من الكلام عامة كيف يكون السكوت أفضل والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما وردت كلام الناطقين وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت.[3]

يبرز كذلك جنس الحجاج في قضية الإطالة والتكلفي الكلام وإيجازه فكانت محل نزاع بين الجاحظ وخصومه بما أن إطالة الكلام لا تتم إلا بالتكلف والصنعة كما تنص على ذلك نظرية الجاحظ.[4]

فالقول بإطالة في الكلام يصبح مرادف للقول بمذهب الصناعة في الفنون بينما الإيجاز يصبح معناه الطبع وعدم التكلف وحث العرب على ترك الإطالة[5]، ويفطن الجاحظ هنا إلى مكيدة وبرد عنها قائلا: «**وهذه الحجج التي ذكروها عن نصيب والكميت والعجاج ورؤية، إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم...**».[6]

---

(1)- المصدر نفسه، ج1, 14.

(2) – باشا العيادي، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه"، ص205.

(3)– محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، بن عكنون، الجزائر، 1994، ص186.

(4)- ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عن الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص190.

(5)- نفس المرجع، ص190.

(6)- الجاحظ، البيان والتبيين، 1ج,ص 208.

ومن خلال شواهد أخرى يستدل الجاحظ بان العرب كانت تعرف الإطالة كما تعرف الإيجاز وذلك كله في جنس حجاجي.

كما نجد جنس الحجاج بارز في موضوع آخر وهو الشعوبية وكيف كان لها الجاحظ بالمرصاد وإدراكه لخطورة مطاعنها، فراح الجاحظ يسجل في كتابه البيان والتبيين بعض مثالبها وراح يفندها ويدلها على أصحابها بالدليل و البرهان، ولعل أشهر ما عابوا به العرب وهو أخذهم للعصا وحملهم للقنا في في الخطابة وقول الشعر، وذلك من أجل الحط من خطابة العرب وبيانهم الذي اشتهروا به و تميزوا فيه، يقول أبو عثمان "**وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس ونجد على الأرض. والإشارة بالقضيب بكلام مستكره**"[1]، ومن هنا راح الجاحظ يدافع عن العرب ويرد مثالب الشعوبية بكل ما أوتي من بيان ناصع وحجج باهر، وليبين لهم أن الخطاب العربي يملك من الطاقات البيانية والحجاجية قادر على الرد إي ادعاءات على العرب وأيا كان مصدرها.[2] واستغل الجاحظ قربه من المأمون الذي اتخذ موقفا معاديا للخرسانيين وراح يبين فضل العرب على العجم في البيان بعامة والخطاب بخاصة، وندل على ذلك من خلال قوله "**إلا أن كل كلام للفرس، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة وعن طول تفكر ودراسة الكتب. وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم، فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال. وكأنه الهام وليس هناك مكابدة وإجالة فكر، ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام(...) أو عند صراع في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى حملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد،**

---

[1]- نفس المصدر، 1ج،ص383.

[2]- علي محمد السيد خليفة، تيار الشعوبية في أدب الجاحظ، دار الوفاء لدنيا الإسكندرية، مصر، ط1، 2011، ص108.

فتأتيه المعاني إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا(...) وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه في البيان أرفع وخطباؤهم للكلام أوجد...".[1]

دافع الجاحظ عن الخطيب وليس ذلك فحسب بل على البيان العربي، لهذا فمطاعن الشعوبية التي توجهها للعرب تبين لنا من وجهة نظر الجاحظ لمدى جهلهم بأخلاق كل ملة، و زي أهل كل لغة وعللهم في ذلك واحتجاجهم".[2]

وهكذا يرجع الجاحظ أخذ العرب لتلك السمات أثناء الخطابة لهم عللهم وحججهم في اتخاذها، وقد جهلت الشعوبية بها رغم أن الأمم الأخرى عندها مثل ما عند العرب من أعراف وسيما "**الرهبان تتخذ العصا من غير سقم ولا نقصان في جارحة، ولا بد للجثاليق من قناع ومن مظلة وبرطلة* ومن عكاز، ومن عصا، من غير أن يكون الداعي إلى ذلك كبرا ولا عجزا في الخلقة (...) وبالناس حفظك الله أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما، ولكل صنف منهم حيلة وسمة يتعارفون بها (...) فعند العرب العمة وأخذ المخصرة".**[3]

وإذن ما عيب على العرب من سيما من طرف الشعوبية هو في الحقيقة جهلهم بأخلاق الشعوب وسيمهم، ولا يدل ذلك على تفاوت حضري أو ثقافي البتة، وإنما يدل على أن النظام الرمزي للخطابة العربية جزء من السيما التي توجد لها مثيلاتها في ثقافات مختلفة.[4]

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، 3ج،ص 28.

[2]- المصدرنفسه ،ج3، ص90.

* القلنوسة التي تدار عليها العمامة، وهي كلمة نبطية وليست من كلام العرب.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص 90-93.

[4]- ينظر: محمد جمال باروت، الجاحظ مؤسس البيان العربي، الأهالي للطباعة، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص75.

فالشعوبية إذن دافع من الدوافع التي حركت المنحى الأدبي والجنس الحجاجي عن الجاحظ لأنه يهتم بالبيان العربي ويدرس جوانبه الفنية والجمالية مبرهنا لهم أن البيان العربي يفوق البيان هند الفرس والروم واليونان وغيرهم.

ولنؤكد هذا الملمح الحجاجي أكثر، فالجاحظ لم يعن بالكلام المبين فحسب بل اهتم بالخطيب وقدرته في تأثيره في المتلقي من خلال وسيلتين بيانيتين[1] "هما الصوت والإشارة وقد عني الجاحظ في الاتصال الخطابي خاصة والخطاب الجدلي على نحو أخص، فحدد مقومات جودة الصوت في سهولة المخرج وجهارة المنطلق وتكميل الحروف وإقامة الوزن".[2]

وما توصلنا إليه هو أن الجاحظ ما أتي له ذكاء وقدرات البيان تنطبق على آليات حجاجية استعملها الجاحظ في الخطب ورسائله باستخدامه هذا الجنس الحجاجي بهدف استمالة القلوب وإفحام الخصوم المعادية.

إن غاية الجاحظ هي الخطاب الإقناعي الشفوي وهو إقناع وتقدم فيه الغاية أي الإقناع على وسيلة اللغة فهو يتعامل مع كل جنس بوصفه خطابا يتحفظ بكل جنس بخصائصه التي تميزه على مستوى الشكل، وهذه من مزاياه النادرة، فمفهوم الخطاب الإقناعي لم يقتصر على جنس بعينه.[3]

---

[1] – عباس حشاني، الخطاب والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2014، ص30.

[2]– محمد العمري، البلاغة العربي أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 1996، ص144.

[3]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب مقارنة تداولية، دار الكتاب الجديدة، دب، ط1، 2004، ص448-449.

فالجاحظ استعمل الجنس الحجاجي وآلياته بالوظيفة الخطابية وما يتصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج ومنازعة ومناظرة وأما الوظيفة الثانية فهي الفهم والإفهام أو البيان والتبيين".[1]

فالجاحظ من خلال استعمال هذا الجنس الحجاجي قد جمع بين الفهم والإقناع من أجل الوصول إلى المتلقي وتأثير فيه ونشر ما يرمي إليه وذلك باستخدامه لآليات الحجاج في الخطب والرسائل.

ب) جنس المحاسن والمساوئ:

تمكن الجاحظ في إطار الأشكال السجالية السابقة للوصول إلى جنس أدبي جديد كان له السبق في وضعه والحديث عنه من خلال بحثه المستمر عن الحقيقة المنطقية ويرجع ذلك إلى العقيدة الفكرية الاعتزالية التي تقوم على أن "الكون يقوم على ثنائية الخير والشر، وأن العبد خالق لأفعاله، وأن الله منزه من أن يضاف له أي شر أو ظلم لأنه عدل لا يفعل إلا الصلاح والخير".[2]

فهذا الجنس الأدبي يستدل به الجاحظ على عظمة الخالق، فليست الحكمة كامنة في فعل الخير فحسب بل في الشر أيضا.

فأدب الجاحظ طرح قضايا إيمانية عديدة بين المسلمين فرقا ومذاهبا التي كانت بدورها موضوعا لسجال طويل يغلب عليها فن المحاسن والمساوئ باعتباره جنسا أدبيا وسيلته المفاضلة بين الأشياء.

---

[1]- ينظر محمد سالم محمد الأمين الظبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص211-212.

[2]- ينظر، الشهرستاني ، الملل ونحل، تح: محمد السيد كيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان، دط، 1980،ج 1،ص 44-45.

وهذا بالتحديد ما لمسناه في أدب الجاحظ بإنشائه فنا أدبيا سجاليا ضخما مضمونه المفاخرات ومفاضلات هذا ما توصلنا إليه من خلال أسلوب المدح والذم الطاغي على مواضيعه التي كانت في الأساس تتمحور على إنسان جنسا، وشكلا ولونا. أو على ألسنة الحيوانات كالمناظرة التي قامت بين صاحب الكلب والديك.

أ) مناظرة مركبة:

كل طرف من هذه المناظرة يؤدي وظيفة المدح والذم، ذلك بعرض محاسن حيوانه ويقابلها بمساوئ حيوان خصمه فيتبادل المتساجلان وظيفتي الطعن والاعتراض من ناحية والرد والدحض من ناحية أخرى، وتبين لنا من خلال هذا الجدول بعض محاسن ومساوئ كل حيوان على حدا.[1]

محاسن الكلب	مساوئ الكلب	محاسن الديك	مساوئ الديك
-ألف للمجالس والديار -ينذر أهله بموضع السارق -حارس لأهله -يعرف صاحبه ويألف اسمه -إن جيع صبر وإن أهين احتمل -مغي السبع وطبعه -يألف موضعه وإن طرد رجع	-أسرق من كل سارق -نباش -آكل لحوم الناس -محترس منه -يجمع سرقة الليل من سرقة النهار -جشع شره -يستوحش الصحاري	-من بهائم الطير وبغاثها -سلاحه الصياصي -جمال انتصابه -اعتداله وتقلعه -حب الملوك أكل لحم الدجاج -تعطف عليه لحبه إياك -زعمهم بجرس من الشيطان	-طائر لا يطير -بهيمة لا يصيد -لا يألف ولا يعهد وعدم ربوعه سكن وإن كان سهل مطلب يسيرا -لا يرجع إلى نسبه -مبهوت لا يعرف وجه صاحبه - لا يحضن بيضا ولا يعطف رحما -لا ينازع دجاجته ولا يحن لولده

[1] -الجاحظ، البيان والتبيين،ج1 ، ص190-196

كما يمكننا رسم تخطيطي أن نبين أن الطرف الواحد من المتساجلين يؤدي وظيفتي المدح والذم، فيذكر مآثر حيوانه ويمدحها بذكر حجج وبراهين من الشعر والقرآن والحديث النبوي الشريف وأمثال والحكم، وذكر مناقب حيوان خصمه.

وقد وسمنا هذه المناظرة بالمناظرة المركبة لأنها تركيبة من مناظرتين متداخلتين ومتقاطعتين، فاحتوت على أكثر من موضوع (صاحب الضأن وصاحب الماعز) (صاحب الحمام، صاحب الديك) فتكون أحيانا متقابلة وأحيانا غير متقابلة.

فأما ما نقصد بالتركيب فكل طرف يمازج بذكر محاسن حيوانه ومساوئ حيوان خصمه هذا ما يجعلنا نتحصل في آن واحد على محاسن حيوانيين.[1]

أ) المناظرة البسيطة:

كما نجد مناظرة بسيطة التي أبرزها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين حيث تقوم على تقابل في وجهة نظر، فيبرز الطرف الأول فيها بوظيفة الطعن والاعتراض، وذلك بإبراز مساوئ موضوع ما فيذمه، في حين يبرز الطرف الثاني بوظيفة الرد فيبرز محاسن ذلك الأمر ويمدحه.

ومنها ما دار بين الجاحظ والشعوبية التي أبرزت عيوب ومساوئ البيان والعصا فكان لها الجاحظ بالمرصاد مبرزا ومبررا لتلك المساوئ بكل ما له من بداهة الحجة والبرهان على محاسن البيان العربي وأخذ العصا وذكر محاسنها مادحا لغة العرب وبيانهم وفصاحتهم وهذا ما نظهره في هذا الرسم التخطيطي.

وفي هذا المخطط والجدول سنذكر ما عابت الشعوبية به العرب من أخذهم للمخصرة وكيف دافع الجاحظ بذكر محاسنها في حياة العربي.[2]

---

[1]- ينظر، باشا العيادي، فن المناظرة في الدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، ص186.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين،ج 3،ص 6- 46-47.

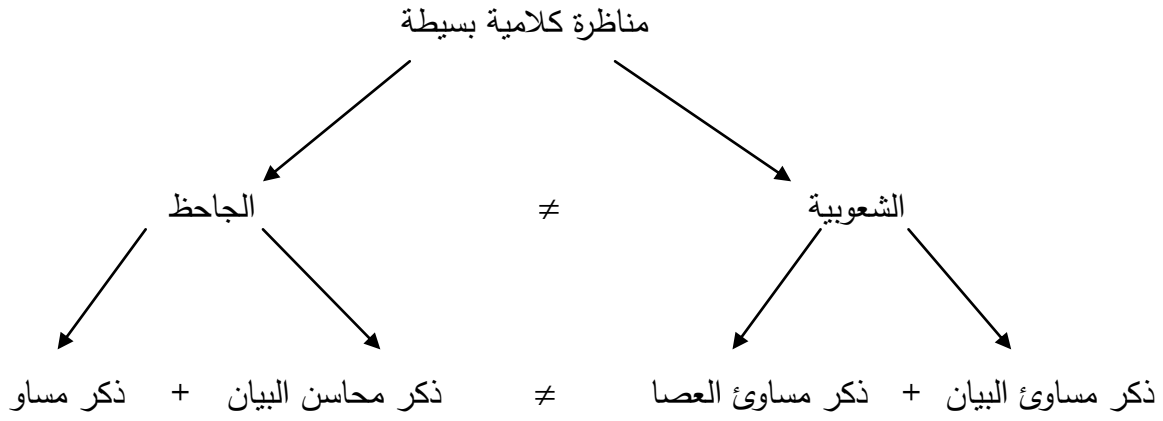

الشعوبية مساوئ العصا	الجاحظ محاسن العصا	الشعوبية مساوئ البيان	الجاحظ محاسن البيان
-عيب ما أخذ العرب للمخصرة -مناقلة الكلام -عابوا الإشارة بالعصا -الاتكاء على أطراف	-جعل الله برهان عيسى بن عمران في العصا -"... فكلنا نمشي أعيا نوكأ على العصا..."	-إنهم أخطب الناس -أعذبهم كلاما -أخطب الفرس أهل فارس -أحسن ولاء -عيب عليهم	الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر. -هم عليه وأقدر وأقهر -خطباؤهم أوجز -مكانة من البيان

القسي -اعتمادهم عليها إذا سنحفرت(*) في كلامهم -أخذ المخاصر في كل حال	-"وإلى العمود الذي إليه يقصد تأتيه المعاني إرسالا" وإذ هاجمنا على حية منكرة فساورتنا فلم تكن عندي حيلة... فضربتها بالعصا... حتى قتلتها.	الارتجال ولهم هم الإطالة الفكرة -عيب عليهم الإيجاز لأنهم كانوا يطيلون الخطب	أرفع -الكلام عليهم أسهل -وعليهم أيسر من أن يفترقوا إلى تحفظ وأن يحتجوا إلى تدارس كل شيء للعرب بديهة وارتجال.

فنلمس في هذا الشكل من الأشكال السجالية أي منازعة خصم جنس المحاسن والمساوئ الذي كان بين الجاحظ والشعوبية الذين طعنوا في فصاحة العرب من خلال بيانهم وعدم معرفتهم بسمات العرب لأخذهم المخصرة في خطبهم مما جعل الجاحظ يدافع عن العرب وفصاحتهم وبيانهم.

فقد وجد هذا الجنس الأدبي امتدادا كبيرا في الأدب العربي بعد الجاحظ فألف "أبو إسحاق إبراهيم البهيقي كتاب وسمة "بالمحاسن والمساوئ".

ظن بعض الدارسين أنه من تأليف الجاحظ.[1]

خصوصا وقد افتتحه فقرات طويلة مقتبسة من "الحيوان" للجاحظ في فضائل الكتاب ومحاسنه.[2]

---

* سنحفرت: مضى فيه ولم يمكث.

[1]- ينظر: علي عبد الجليل علي، الجاحظ رائد البيان العربي، حياته، ثقافته، كتبه، حوس الدولية، الإسكندرية، مصر، ط1، 2013، ص220.

[2]- باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه، ص250.

ومن هنا نتوصل إلى أن السجال قد مكنا الجاحظ من توليد أجناس أدبية جديدة للنثر العربي في إطار أجناس أدبية قديمة كالرسائل حتى ظن بعض الدارسين أن هذا الأديب أحيا في جل رسائله فنونا تليدة كالمفاخرات والمنافرات

2/ الوظيفة الإقناعية (المعرفية):

تتمحور الوظيفة الإقناعية في أدب الجاحظ من خلال غايات يرمي الجاحظ إلى تحقيقها من خلال ما صرح به في عدد من المواضع من مصادره، أن السجال يهدف في نظره إلى تنمية المعرفة وتطوير مما عبر الأجيال إذ تعددت تعريفات هذه الوظيفة لكن الهدف هو واحد.

"إن الغاية التي يرمي إليها الحجاج هي تحقيق استمالةadherence المتلقي لما يعرض عليه من رأي أو دعوىthesis والتأثير العلمي في سلوكه وبجملة الإقناع وتلك غاية قديمة".[1]

وعرفت بأنها "كتابة تتبني قضية ما قابلة للنقاش، وتعرضها بين رأيين مؤيد ومعارض، بهدف إقناع القارئ ليتخذ أحد الجانبين، مع أخذ آراء الجانب الآخر بعين الاعتبار".[2]

---

[1] –جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار الغريب، للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2000، ص85.

[2]– حسن شحاتة، الكتابة الاقناعية الحجاجية فكر جديد من النظرية إلى التطبيق، دار العالم العربي، القاهرة، ط1، 2012، ص17.

فما يرى طه عبد الرحمن: أنها تتضمن مطالبة المحاج غيره بمشاركته اعتقاده ومطابقته تلك لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجر الغير جرا إلى القناع برأي المحتاج".[1]

أي إقناع السامع يكون بفعل التأثير ما يصوغ المساجل من دلائل مختلفة في سبيل إبلاغ فكرته وتحقيق استمالة مخاطبه وفقا لتأثير عاطفي أو عقلي تمارس عليه صفة الدلائل لا إكراه.

حيث تنسجم هذه الوظيفة مع الشكلين الثاني والثالث للسجال وهما المناظرة ومفاوضة يقول الجاحظ: "**التفاضل في المعرفة**"[2]، ويقول أيضا "**أن تزيد عقل غيرك في عقلك**"[3]، ويقول في موضع آخر موضحا ذلك أكثر "**فوضعنا في كتابنا هذا حججا على من عابنا بملك القيان وسبنا بمنادمة الإخوان ورجونا النصر... فبين الحج... ونقضنا أقوال خصمائنا بقول موجز جامع لما قصدنا فهمهما أطنبنا فللشرح والإفهام**"[4]

فالحجاج وسيلة لاتخاذ القرار بأفضل الحلول كأن يطرح قضية ويبسط أطروحة فيعرض فيما أكثر من تفسير وأكثر من تأويل، فمن ثمة يتصدى لما فيها من جوانب الشغف بالنقد وترجيح الرأي أو إلى استبعاده.[5]

فالجاحظ من خلال الشواهد السابقة يحاول أن يوضح لنا أنه يحاول من خلال تأليفه كتبا في الاحتجاج طالب للوصول إلى الحق والصواب.

---

(1)- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000.

(2)- الجاحظ، الرسائل ج4، ص 43.

(3)- المصدرنفسه ،ج1، ص 96.

(4)- المصدرنفسه،ج 2، ص 146.

(5)- ينظر 1685 t/ com . fromactif Educ :// http يوم: 20-4-2015 على الساعة: 10:05 صباحا.

ذلك أن الاشتراك في المسلمات التي يقع الانطلاق منها، والمفاهيم التي يعقدها المتحاوران، يدفعهما إلى التعاون وإظهار الحقيقة الخفية عن أحدهما أو كليهما ويبذلان جهدا لتوضيحها.[1]

من خلال التناظر أو التحاور بين المتساجلين، هذا ما يجعلنا نتساؤل ما الحقيقة التي يسعى الجاحظ إلى توضيحها وتبيانها؟

يتجلى لنا في مستهلات مصادر الجاحظ انه يبحث عن عظمة وحكمة الخالق من خلال الكون والمخلوقات والموجودات معتبرا إياها براهين وحجج مستدلا بها.يقول في كتاب الحيوان: "**ووجدنا كون العالم لما فيه حكمة (...) كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشي من الدلالة وأودع من عجيب الحكمة...**"[2] **إلى أن يقول وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتبنيه...**"[3]

ويتعلق هذا النوع من الوظائف السجالية في مناقشة المسائل العقائدية والفكرية لإثبات معتقدات اعتزالية ومقالاتهم الإسلامية.

وجاء في حديثه عن الوسطية ومذهب الوسط الذي هو فكر المعتزلة واعتقادهم قوله:"وفي الاقتصاد بلاغ في توسط مجانية للوعرة وخروج من سبيل من لا يحسب نفسه، وقد قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها: نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا.

وقال آخر:

لاَ تَذْهَبن في اَلْأُمُور فَرْطًا ولَا تَسْأَلَنَّ إن سَأَلْتَ شَطَاًطا

وَكُنْ من الَّناس جَميعًا وَسطًا

---

(1) - باشا العيادي، السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه.

(2)- الجاحظ، الحيوان،ج1، ص33-34.

(3)- المصدرنفسه ،ج1، ص 38.

وليكن كلامك ما بين مقصر والغالي فإنك تسلم من المحنة عند العلماء من فتنة الشيطان (...) وقالي: كن في الناس واسطا وأملس نبا وقال عبد الله بن مسعود في خطبته (وخير الأمور أوسطها وما قل وما كفى خير مما كثر وألهى نفس تنجيها خير إمارة لا تحصيها".[1]

فهذه المقولة تثبت الشرع فديننا دين وسطية واعتدال لا تعصب فيه فتبدوا تلك القضايا التي أوردها الجاحظ في ذلك ساعيا إلى تحقيق إقناع المتلقي بما في أغلبها مرتبط بموضوعات التي اشتغلت بها المعتزلة، الذين كانوا يعتقدون بعدد من الاعتقادات في مسائل عقائدية وشرعية.

حيث أكد هذا الصدد عدد من الأدباء والدارسين ارتباط الجدل والمناظرة بالجانب الديني عموما والكلامي خصوصا، كما نبهوا إلى دور المعتزلة في ازدهارها وانتشارها. يقول شوقي ضيف: "المعتزلة أهم الطوائف المتناظرين ناظروا المتكلمين من الذين خالفوهم في أصولهم الخمسة، وأرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمناوية ومن أشهرهم أبو هذيل العلاف وإبراهيم النظام...".[2]

فأي عرض القضايا ومقابلتها يدعم القول فيها من آراء وأقوال فإن حدث وتضمنت قولا فيها من آراء أو أقوال، فإن حدث وتضمنت ضعفا أشار إليه ونقده مبينا عيوبه وعجزه، يقول: "هشام بن حسان وغيره قال: قيل للحس>ن: يا أبا سعيد أن قوما زعموا انك تذم عباس، قالوا: فبكى حتى خضلت لحيته ثم قال: إن ابن عباس كان من الإسلام بمكان إن ابن عباس كان من القرآن بمكان، وكان والله له لسان مسؤول وقلب عقول وكان الله مثجا بسيل غربا. قالوا: وقال علي بن عبد الله بن عباس: من لم يجد مس الجهل في عقله، وذل

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين،ج1 ، ص255-256.

[2]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص459.

المعصية في قلبه ولم يستبن الخلة في لسانه عند كلال حده عند حد خصمه فليس ممن ينزع عن ريبة ولا يرغب عن حال (...) وقالوا: **وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بلاغة بعض أهله فقال: إني لا أكر أن يكون مقدار لسانه فاضلا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا على مقدار عقله هذا كلام شريف بن نافع. فاحفظوا لفظه (...) فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواءه لأن اللفظ الهجين الرديء والمستكره الغبي أعلق باللسان وآلف للسمع وأشد التحاما بالقلب من الفظ النبيه الشريف والمعنى الرفيع الكريم**".[1]

أشار في هذا الشاهد إلى فضل اللسان وقرن مقدار ذلك بمقدار العلم حتى يكون الكلام شريفا نافعا ونبه إلى الخلل في الحصول ذلك فساد وعي كما تحدث عن ضرورة معرفة مقام السامع حتى يجيد اختيار فيما يناسبه من اللفظ في المخاطبة، حتى لو كان المتكلم من أهل العلم كما جاء في كلام بشر بن المعتمر: "... **فإن الخطيب متكلما تجنب ألفاظ المتكلمين كما أنه عبر عن شيء في صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين، إذ كانوا لتك العبارات أفهم...**".[2]

كما ذكر العيب الذي يعتري المتكلم في مثل تلك المواقف فقال: "**فقالوا وقبيح بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين على منبر الجماعة أو في سدة دار الخلافة أو في جمع وحفل (...) فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن رفيع المكان: ثم أن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم، لاشاهم فتلاشوا..**".[3]

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 85-86.

[2] - المصدر نفسه،ج1، ص 139.

[3]- المصدرنفسه،ج1 ، ص140.

يتضح لنا أن منهج الجاحظ قائم على مبدأ الشك فهو لا يسلم بأمر ولا يطمئن لصحته ومعياره حتى يعرض تلك القضايا على العقل الذي مجده لأنه مرجع لمذهب الاعتزال والوصول إلى المعرفة المنشودة.

وفي شاهد آخر يوضح لنا الجاحظ غايته من السجال في البحث عن المعرفة من خلال عرض آراء الخصم ودحضها وذلك من خلال حجج وبراهين منطقية، يقول: "**فكتبت لك كتابا أجهدت نفسي وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على كل طعان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي ولا لكافر مباد، ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن خلق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل ليس برهان ولا دلالة**".[1] فهو يثبت أنه يهدف إلى التأثير وإقناع أكثر مما هو بصدد البحث عن الحقيقة والصواب.

فمن خلال هذه الوظيفة يأخذ الجاحظ باعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية، وتوجيهات ظرفية ويهدف إلى الاشتراك الجماعي في إنشاء معرفة علمية وهو أيضا جدلي لأنه سعيه لإقناع القائم على بلوغ المعرفة والاستدلال العقلي لدحض الخصم واستمالته إلى معتقداته ومذهبه. وهذا كله من خلال استعانته بإستراتيجية حجاجية أو ما يسميها سياسية القول فتضمن له التأثير في المخاطب وذلك بطريقة عقلية منطقية.[2]

ولكن المتمعن في طريقة تأليف الجاحظ والمتتبع لمنهجه يلحظ أن الجاحظ يهدف إلى الحقيقة والصواب، ولكن أي حقيقة غير التي ذهبت إليها المعتزلة وهكذا ينتقل الجاحظ من البحث عن المعرفة والحكمة عامة إلى الدفاع عن المذهب خاصة. وهذا ما يجعلنا ننطلق بالتعرف على وظيفة أخرى.

---

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين،ج3، ص 287.

[2]– ينظر: علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجا)، ص348.

3/ الوظيفة الإيدولوجية:

يسعى الجاحظ من خلال هذه الوظيفة إلى نشر مذهبه الاعتزالي من خلال معرفة كلامية بين عامة الناس. بطريقة لم يسبق إليها أحد من الأدباء من سواه وهي الجمع بين الجد والهزل، فكان منهجه استخدامه الأسلوب الطريف الساخر الذي يحمل النفس على تحمل الفكر وتقبل النظر، يقول: "**فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددها وتبعد غايتها، فرأينا والله الموفق وأن تقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السآمة وبالمألوف إلى مجاوزة القدر، وليس ينبغي كتب الآداب والرياضيات أن يحتل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود، وللصبر غاية وللاحتمال نهاية، ولا بأس أن يكون الكتاب موشحا ببعض الهزل**".[1]

فمن خلال هذا الشاهد يبرز الجاحظ لمزجه بين الجد والهزل في كتابته فهو يريد كتابا سخيفا يتعامل مع التوافه من القضايا والسطحي من الأمور".[2]

وهذا ما يوضحه في شاهد آخر يقول: **على أن الكاتب إذا كثر هزله سخف كما أنه إذا كثر جده ثقل ولا بد للكاتب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ وينفي النعاس عن المستمع**"[3] فهو لا يريد كتابا ثقيلا عن النفس لا يفهمه إلا خاصة الخاصة، فهو ينادي بالوسطية التي توازن بين استخدام الهزل في مواضع والجد في مواضع التي تستلزم فيها.

أيضا يمكننا أن نعد أسلوب الجاحظ هذا سبب في عدم ميل الجاحظ لتولي مناصب سياسية "كذلك كانت هذه المناصب تقتضي الرصانة و الجد والصارم".[4]

---

(1)- الجاحظ، الرسائل،ج3، ص 103.

(2)- علي عبد الجليل علي، الجاحظ رائد البيان العربي، حياته ثقافته كتبه، ص255.

(3)- الجاحظ، الرسائل،ج3، ص 103.

(4)- الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تح: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ص132.

ولم يكن الجاحظ ليتخلى عن روح الفكاهة والدعابة اللتين فطر عليهما مهما كان المقابل لهذا. ولذا وجد أن العمل السياسي داخل أنظمة الدولة سيكلفه الكثير في إبعاده عن الطبيعة التي فطره الله عليها.[1]

يقول في موضع آخر: "**لو استعمل الناس الرصانة في كل حال والجد في مقال (...) لكان السفه الصراح خير لهم والباطل محص أرد عليهم ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل. فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه...**".[2]

بيد أن بعض خصوم الجاحظ قد عابوا عليه طريقته في المزج بين الجد والهزل في كتبه وهذا ما جعله يدافع عن أسلوبه الساخر في كتابته فرد على خصمه قائلا: **وقد غلطك فيه –أي في كتاب– بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معناه ومن بطالة لم تطلع** على **غورها، ولم تدر لم أجتلبت ولا لأي علة تكلفت ، وأي شيء أريغ بها، ولأي جد احتمل ذلك المنزل، ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتليت ليكون على للجد. وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة**".[3]

فهو مدرك لاستخدامه هذا الأسلوب فيوضح أنه وراء مزاحه وهزله هذا هدف وغاية يسعى من خلالها إلى شرح أمور جادة ورزينة.

وقد رد بعض الباحثين منهم الدكتور طاهر مكي تلك النزعة الساخرة في أسلوبه الأدبي إلى ما عرف عنه من سمات جسمية وشكلية، من دمامته وجحوظ عينه، وكأن تلك الصورة جعلت الجاحظ بذكائه وفطنته يستعلي عليها ويقفز فوقها ولا يجعلها حائلا بينه وبين ما يريد. "هذه النقائص الجسمية كانت وراء دعابته ومرحه وسخريته من نفسه وتندره بأعز

---

(1)- علي محمد السيد خليفة، الجاحظ، الدولة العباسية، دار الوفاء لدنيا، الإسكندرية، مصر، ط1، 2011، ص43.

(2)- الجاحظ، الرسائل،ج1، ص 114-115.

(3)- الجاحظ، الحيوان،ج1 ، ص 37.

أصدقائه، واستخف بالعادات المرعية والآداب السائدة وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة حياته".[1]

ولكن ما يحرص الجاحظ عليه من خلال هذا الأسلوب الوفاء لمذهبه باستخدام مصطلحات المتكلمين وطريقتهم في الحجاج، فيعتمد في مزج ذلك بين السخف والباطل. حتى لا يشعر المتلقي بالفتور والملل ويدافع عن هذا بقوله: **وإن كنا أمللناك بالجد والاحتجاجات الصحيحة والمروج لتكثر الخواطر وتشحذ العقول، فإننا سننشطك ببعض الباطلات وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريبة**".[2]

فهو يبرز علتين لا تباعه هذا المنهج فيرى أن الجد الهدف منه تكثير الخواطر وشحذ العقول، وأما الهزل فالهدف منه دفع الملل وتنشيط، يوضح لنا ذلك أكثر في شاهد آخر يقول: "**وعلى أني قد عزمت والله الموفق أن أوشح هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة، والغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة (...) وقال أبو الدرداء إني لأجم نفسي ببعض الباطل**"[3]

يسعى من خلال هذا الأسلوب لنشر مذهبه الاعتزالي، كما ساعده على ذلك احتكاكه بالثقافات الأخرى، كاليونانية والفارسية عن طريق المشافهة، والتثاقف بين العرب وتلك الشعوب، فأصبحت الفئة المثقفة من المسلمين تقرأ ما ترجم[4] من كتب اليونان في الفلسفة

---

(1)- أحمد الطاهر المكي، دراسات في مصادر الأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط8، 1999، ص183.

(2)- الجاحظ، الحيوان،ج3، ص 5.

(3) - المصدر نفسه،ج3، ص 366.

(4)- ينظر: علي محمد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذج)، ص140.

ومنطق "وراحت تفكر في قضاياها الدينية من زاوية جديدة"[1] لأن الفلسفة والمنطق اللذان زوداهم بحجج قوية فعالة نشأ منها علم الكلام.

وأشهر من اتخذ علم الكلام منهجا في التأثير والإقناع المعتزلة التي تدافع عن الإسلام وتصدي للمتكلمين من أصحاب الملل والنحل الأخرى كما دافعت عن عقيدتها فلهذا نجد الجاحظ يقول في هذا الشاهد: "**لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل**"[2]، ولهذا نجد الجاحظ كثيرا ما يمتدح المتكلمين لأنهم يعنون بصناعة الكلام والبلاغة وإيراد الحجج ويحسنون الساجل وأشكاله فيما تتميز الأشياء ويعرف الحق من الباطل، يقول الجاحظ: "**وهذا جواب المتكلمين، جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة، يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا (المعتزلة) وهو يجمعها**".[3]

وهنا نجد الجاحظ يكرر دائما أن المعتزلي الحق هو الذي يجمع بين علم الكلام وعلم الدين فهما يشكلان معا عقيدة المعتزلي. العقيدة التي تقوم على النظر والعقل، والشك واليقين، فالحكم للعقل لا إلى الحس الذي قد يصيب وقد يخطئ والعقل هو الحجة عندهم.[4]

ولهذا فإن الجاحظ كثيرا ما ينتقد الذين يعترضون عليه فيما يكتب ويستدل مرجعا ذلك الاعتراض إلى عدم معرفتهم بالكلام "**أعلم الناس باللغة لم ينفعل في باب الدين حتى يكون عالما بالكلام**".[5]

---

(1)- جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط4، دت، ص83.

(2)- الجاحظ، الحيوان،ج4، ص 75.

(3)- المصدر نفسه،ج2، ص 266.

(4)- ينظر: يعيد حسين منصور، لبن الخاصة والعام في أدب الجاحظ، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، مصر، ط1، 2010، ص85.

(5)- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 123.

هذا الشاهد يوضح مدى طغيان الطابع السجالي على نثر الجاحظ من خلال تشربه والتزامه بمبادئ ومعتقدات المعتزلة "وبرزت النزعة العقلية التي تقارن وتقيس وتستنبط واكتسى أدبه بتحاسين منطقية"[1] فالجاحظ يدافع عن نحلته ومعتقداته وبث عقيدته الاعتزال في تضاعيف كلامه عن طريق المساجلة حتى عد أشد المتكلمين في عصره، كما لا يخفى علينا أنه لم يعن الجاحظ بالبلاغة والفلسفة اليونانية وإنما عمد على الثقافة بوجه عام لأنه "يترتب على صناعة الكلام الخطابة والثقافة الواسعة، لأن المتكلمين كانوا يتعرضون لكل موضوع في حجاجهم ومن أجل ذلك كان لزاما عليهم أن يسعوا ثقافتهم ليستمدوا منها حججهم وبراهينهم في التدليل على ما هم بصدده"[2]، فلهذا كانت جل مؤلفات الجاحظ شاملة لكل بدور المعرفة بشتى تجلياتها وتشكيلاتها، كل ذلك من أجل أن يؤثر على السامع أو المتلقي بأكثر من علم وأكثر من دليل حتى لا يترك له مجالا لشك وارتياب.

كما لا يخف علينا أن المتكلمين تأثروا بمناهج السفساطيين التي انتقلت إلى العرب بمعية الفلسفة اليونانية، ما جعل الجاحظ يستثمر طريقة أسلوبهم في الجدل والمناظرة والخطابة".[3]

إن تضافر عوامل الصنعة الكلامية لدى الجاحظ، واحتكاكه بالأدباء وعلماء من جلة شيوخ المعتزلة جعله مؤسسا لبيان العربي والبلاغة وأحد أعمدة نحلة المعتزلة. وهذا ما يجعلنا نعتبر أن المساجل الاعتزالي ينصب نفسه مدافعا عن الدين والقرآن ومن وسائل دفاعه التأويل. لكن دفاعه هذا قد اكتسى لبوسا أدبيا فاتسم ما فيه من فكر إسلامي قديم الأصول،

---

(1)- بلقاسم الغالي، الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص99.

(2)- فكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ص97.

(3)- ينظر: علي محمد علي سليمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظرية الحجاج (رسائله نموذجا)، ص143.

الفقه التفسير بسمة الأدبية الأمر الذي لم يكن مألوفا عند الفقهاء والأصوليين والمفسرين في سنن تأويل القرآن.[1]

فالجاحظ من خلال نحلته هذه يبرز دلالات حضارية واختلافات فكرية تساهم في تعظيم المعتقدات الفكرية للمعتزلة وتحقير خصمه وفكره.

وذلك من خلال تعميمه أسلوب الموازنة والمناظرة والمقابسة والذي هو سمة المتكلم الاعتزالي في المساجلة وأشكالها الثلاثة، فالمتكلم يدل عليه خطابه سواء تطرق...ذلك الخطاب الدين أو البخل أو غيرها من مواضيع...

كما نلمس أيضا أمر مهما وهو اتخاذه الحيوانات في مواضيع مناظراته وجعلها رموزا يقع التطرق من خلال المساجلة إلى محاسنها ومساوئها.

وعلى هذا الأساس كانت صورة المساجل الاعتزالي في أدب الجاحظ انطلاقا من مواضع التي يوضع فيها والمواقع التي يحتلها لإبراز عقيدته وفكره بشكل منطقي وعقلي لم يسبق الجاحظ إليه أحد.

---

[1]- ينظر: عبد القاهر البغدادي، الملل والنحل، تح: أليار نصري نادر، بيروت، لبنان، 2006، ص91.

خـــــــــاتمـــــــة

خاتمة:

أفضى بنا البحث والتنقيب في السجال في أدب الجاحظ دراسة الأشكال والوظائف الخلوص إلى عدة نتائج:

- السجال شكل من أشكال التفاعل القولي يقوم على خلاف بين متساجلين، هدفه الأساسي الوصول إلى المعرفة والحقيقة المنطقية، وهذه الأشكال هي: منازعة الخصوم، مناظرة الأكفاء البلغاء ومفاوضة الإخوان.
- يزخر تراثنا الأدبي القديم بعدد كبير من فنون سجالية تضمنت نماذج كثيرة منها مصادر الجاحظ.
- تقوم منازعة الخصوم بين أطراف غير متجانسة من حيث الدين والمذهب السياسي أو الكلامي غايتها التشنيع والفلج على الخصم وإفحامه، وهدفها التباري والتنافس وحب الغلبة بانتصار الفكرة ودحضها.
- تعتمد المناظرة على التكافؤ بين المتساجلين تغلب عليها صيغ التفضيل والموازنة، وتكشف القياس الخاطئ وتصويبه، والقصد منها الوصول إلى الصواب.
- تتجلى مفاوضة الإخوان في أنها تقوم بين أطراف غير متكافئة معرفيا وإن كانت متجانسة تربطها علاقة تواصل وتأدب يغلب عليها طابع حجاجي هدفها تعليمي بتمرين العقول من أجل الوصول إلى نتيجة معرفية برهانية.
- تتداخل الأشكال السجالية في أدب الجاحظ فيما بينها، فالمناظرة بقيت مشدودة بالمنازعة أحيانا و إلى مجرد المناقشة أحيانا أخرى.
- تتجلى وظائف السجال في أدب الجاحظ ثلاثة وظائف.
- مكن السجال عند الجاحظ من توليد أجناس أدبية جديدة في النثر العربي في إطار أجناس أدبية قديمة، كالحجاج الذي حرص على وضعه كجنس قائم بذاته بتحديد أسس و مبادئ، و جنس المحاسن و المساوئ الذي كان له السبق في وضعه.

خاتمة:

- تتمحور الوظيفة الإقناعية في أدب الجاحظ الى تحقيق معرفة منطقية والبحث عن عظمة الخالق وحكمته من خلال الكون والمخلوقات معتبرها براهين وحجج يستدل بها.
- يسعى الجاحظ من خلال الوظيفة الإيديولوجية إلى نشر معتقداته الفكرية وترويج أفكار مذهبه الإعتزالي وتمجيده للعقل، وذلك بطريقة ذكية لم يعهدها الأدباء من قبله، وذلك بمزجه بين الجد والهزل حتى لا يشعر القارئ بالملل، و لنشر مبادئ نحلته من خلال هذا الأسلوب.
- هذا ما سمح لنا الوقت والتنقيب في الكتب من الوصول إليه، فإن وفقنا فذلك ما نرجوه، و إن شاب جهدنا نقائص قلنا أجر المجتهد.

ملـــــــحـــــــق

ملحق الجاحظ:

1. حياته:

أبو عثمان بن بحر الجاحظ الكناني صليبة يقول: "وأنا رجل من كنانة وللحلافة قرابة وهم بعد جنس وعصبه".

ولد بالبصرة في أوائل سنة خمسين ومائة للهجرة، عاش ستا وتسعين أونيفا وثمانين، كان قصير القامة دميم الخلقة جاحظ العينين وقد نشأ بالبصرة فقيرا معدما، فكان يبيع الخبز والسمك في سيحان ويستعين بذلك في طلب العلم أنه كان من محبي العلم والأدب فقد استقصى مختلف علوم عصره، فأخذ اللغة العربية وعلمها عن الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيد والأخفش الأكبر الذي كان يشرح كتاب سيبويه وكان متهكما قدريا وهو من أحذق الناس بالجدل.

أخذ الكلام عن إبراهيم السيار النظام المعتزلي وقد أخذ الجاحظ من المعتزلة مبادئ الاعتزال الخمسة: العدل، التوحيد، المنزلة بين المنزلتين، الوعد و والوعيد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه افترق عن سائر المعتزلة بآراء خاصة انفرد بها، ونسبة إليه الفرقة المعروفة بالجاحظية.

وقد اغترف الجاحظ من الأعراب الذين يفدون على البصرة الفصاحة والبيان وهو الذي طالما ناقشهم وتأثر بهم، وهو لا يكتفي بتلقف الفصاحة والآثار الأدبية منهم بل يعمد إلى مشاهدة حركاتهم وشطاحات عقولهم وهي حركات ماهرة رشيقة تنك عن الذكاء النادر، كما أنه لم يفته أن يصغي إلى نوادرهم وطرائفهم وملحهم وما أكثر وكان يلاحظ ما دق ولطف من محاوراتهم ويستنبطهم.

وبلغ شغفه بالعلم والأدب أن يكثر "دكاكين الوراقين ليبيت فيها وما من كتاب يقع بين يديه إلى استوفى قراءته، كل ذلك كان على حساب لقمة العيش حتى أن أمه تقدمت له بطبق كراريس بعد أن ضجرت منه وهي تقول هذا غداؤك الذي تغدو به وتروح".

وكل ذلك لم يثن من عزيمته فكان يكتب بقدر ما يقرأ فألف الكتب القيمة ونسبها إلى مشاهير الكتاب كسهل بن هارون وابن المقفع وغيرهما حتى إذا ما ذاعت شهرتها جهر بأنه صاحبها وواضعها.

عاصر الجاحظ اثني عشر خليفة في العصر الذهبي للدولة العباسية، إذ أنه ولد في عهد المهدي وشب في خلافة المهادي ونشأ في خلافة الرشيد، وفي أيمه برز الفرس وفي أيامه أيضا تنفذ الأتراك.

وهكذا طالت حياة أبي عثمان وانتابته الأمراض فأصيب بالفلج والنقرص ولزم بيته في البصرة فكان الأدباء يختلفون إليه يمنحهم فكاهته وطرفته وملحته وقد روي أن المتوكل طلب أن يحمل إليه فقال الجاحظ: "ما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل ذي شق مائل ولعاب سائل وعقل زائل ولون حائل"، وقد توفاه الله في خلافة المعتز سنة خمسة وخمسين ومائتان للهجرة.

وذهب ضحية كتبه التي سقطت عليه ضحية أعز الأصدقاء.

2. أسلوبه وطريقته:

أجمع كل من أرخ للجاحظ أو كتب عنه أو حقق له أنه كان يمتلك قوة التعبير الفني منحته القدرة على التميز والتفرد ورفعت من شأنه بين من ينتمون إلى مذهبه.

يقول عبد السلام محمد بن هارون في مقدمة كتاب الحيوان: "إمام فذ من أئمة البيان في العربية. وليس في الإسراف والمغالاة أن نعده زعيم البيان العربي ونطلق القول في ذلك إطلاقا. هو زعيم البيان العربي في قوته وأسره وفي دقته وصحته وحلاوته وجماله وفنه".لقد

كان يبحث الجاحظ عن التميز وقد وصل إليه فعلا باستحقاق وجدارة فهو "لم يكن همه هم غيره من المؤلفين في الجمع والرواية والحفظ، وإنما كان وكده أن يبتكر وأن يطرف، وأن يخلق للناس بديعا يسمع على جميعها بالدعابة والهزل ويشيع الفكاهة في أثناء الكلام. فجمع بذلك قلوب القارئين إليه واستولى منهم بذلك على شتى ميولهم إلى ما يكتب، فصبوا إليه واغرموا اغرما".

الاستطراد:

الاستطراد سمة من أبرز سمات أسلوب الجاحظ ودل على ذلك على غزارة علمه وعمق ثقافته وتعدد مصادره وتنوع روافده، ونكاد نزعم وجود هذه السمة لدى الجاحظ أو لدى غيره هي دليل قاطع على كثرة ما لدى الكاتب من معلومات يضمن أن يترك القارئ أو المستمع دون أن يزوده بها. وقد اشتهر الجاحظ بالاستطراد وعرف عنه ولكنه لم يكن مدخلا ويبعث عن الملل والسأم بل كان الهدف الترويح عن القارئ ودفع الملل.

وقد أورد الجاحظ تعليلا لذلك في كتابه الحيوان يقول: "لولا أني أتكل على أنك لا تهمل باب القول ي البعير حتى تخرج إلى الفيل وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية وفي المرأة حتى تخرج إلى الرجل لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه ليس مما يمل".

الواقعية:

يعتبر الجاحظ من الكتاب القلائل الذين جاد بهم العصر العباسي ومن النادر جدا ان تجد أديبا مثله يتعهد لقرائه بدراسة الأشياء دراسة متغلغلة، مستعينا بكل حواسه متأملا الألوان والأشكال والأجزاء، دون أن يغفل أي ناحية.

كما كان حريصا على تقديم الحقائق سارية كما هي في الواقع ليكشف منا ما ينطوي تحتها حتى لو صدمت مشاعر الناس، كما استخدم الجاحظ أسلوبا ملائما ولغة مناسبة في

حديثه عن هذا الواقع فكل معنى شريف ضرب من اللفظ وهو حقه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه.

الإيقاع:

أدرك الجاحظ وهو الكاتب المتفنن الخبير بمواقع الكلام أن جمال الفكرة مرهون بجمال العبارة كما يحرص أن تكون تعابيره متوازية ومتعادلة الفقرات. ذات تقطيعات صوتية متقاربة، دون أن يلزم نفسه سجعا أو يتكلف ازدواجا أو يستكره جنسا.

"وعبت الكتاب ولا أعلم دارا أبر، ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر ولا أقل جناية، ملا لا وابر، ما قتال من كتاب".

التصوير:

يملك الجاحظ قدرة على التصوير ونقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها معتمدا في ذلك على الأسلوب الإخباري والإنشائي والوصفي والقصصي.

أ) التصوير السردي:

نفهم هذا النمط من خلال الحيل الماكرة التي ينفذ منها أولئك البخلاء إلى مآربهم وأغراضهم في واقعية أملتها الظروف والبيئة، وما كان يسودها من ظواهر فجاء تصويره ممتعا لدراسة نفسية خصيبة.

ب) التصوير الساخر:

لا شك أن السخرية تلون أدب الجاحظ بلون يعلق بالقلوب وتتطلع إليه النفوس ومرد ذلك يعود إلى ما وهبه الجاحظ من استعداد مرح وروح خفيفة يعمد من خلال إلى المسخ والتشويه النموذج البشري عن طريق التصوير الكاريكاتوري فيثير الضحك وقد اعتقد الجاحظ أن هذا أحسن أسلوب في ثلم الأعداء.

مؤلفاته:

للجاحظ عدة مؤلفات أدبية وفكرية، تمثل عصره أصدق تمثيل، خلف أكثر من خمسين ومائتي كتاب ويمكن تقسيمها إلى ما يلي:

1. رسائل مختصرة أو مقالات مطولة ومن هذا النمط دفاعه عن العرب.
2. قصص وأضاحيك وأسفار ومن هذا النمط البخلاء والصرحاء والهجناء.
3. الجد والهزل والدرس ومن هذا النمط البيان والتبيين والحيوان.

- **البيان والتبيين:** أشرف كتب الجاحظ لأنه جمع فيه المنظوم والمنثور وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب.
- **الحيوان:** أضخم كتب أبي عثمان أهداه إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم في عهد المتوكل، ألفه في المرحلة الأخيرة من حياته.

حوافز تأليفه لهذا الكتاب:

- الاستدلال على عظمة الخالق من خلال مخلوقاته.
- إشاعة جوانب المعرفة بين الناس.
- الانتصار للمعتزلة الذين تناولوا الحيوان بالكلام ونظموا فيه القصائد.
- الانتصار إلى الأرومة العربية حين استثارتها الشعوبية وذلك بتقبيح بعض الحيوانات واستقذارها ورمي العرب بها.
- معارضة لكتاب أرسطو في الحيوان بعدما اطلع الجاحظ على كتاب أرسطو الذي نقله ابن بطريق سنة 200هـ.
- **كتاب البخلاء:**

من أهم الآثار الأدبية التي أبقت الأيام عليها من ميراث الجاحظ وقصد الجاحظ بهذا الكتاب مواجهة العجم المشهورين بالاقتصاد والبخل وهم أهل خراسان والموالي الذين عاشوا منهم

بالبصرة، فنقد بخلهم في كتابه هذا ليحافظ على تقاليد الكرم والضيافة التي هي من شيم العرب.

وذاك بشكل طريف وفكاهي، واعتبر هذا الفن في النثر لونا جديدا في الكتابة فطالما تذاكر الناس نوادر البخلاء وتفكهوا بها ولمنها لم تظفر قبل العصر العباسي بالعناية التي صادفتها فيه".

وهكذا فقد كان الجاحظ في زمانه رائع الدعابة خفيف الروح مستخف بالأغراض السائدة والتقاليد الموجودة، ميالا إلى الضحك والهزل، سيد البيان ورائده. عالما بشتى مجالات المعرفة وجمعا لع في كل دروب العلم.

أهم الكتب التي كانت لنا عونا في التقصي في شخصية الجاحظ وهي كالآتي:

1- الجاحظ، الرسائل، ج1،ص 5.

2- عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة، حيدرة، الجزائر، دط، 2000، ص74.

* سيحان: أحد أنهار البصرة.

3- محمد عويضة، الجاحظ، الأديب الفيلسوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1993، ص16.

4- طه الحجاري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، القاهرة، دط، دت، ص102.

الجاحظ، الحيوان، ج1،38ص.

5- محمد الصادق عفيفي، المدارس الأدبية، دار الفكر، القاهرة، مصر، دط، 1971، ص466.

6- فتحي محمد، الفكاهة في الأدب العربي، نقلا عن عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، ص79.

7- آدم مستتر، في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، الدار التونسية، تونس، دط، 1986، ج1،ص 392.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصـــادر:

*القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1- أحمد الزمخشري أبي المحسن جار الله محمد بن عمر بن ، أساس البلاغة، تح: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ، 1998 ، ج1 .

2- الجاحظ أبوعثمان بن بحر ، البخلاء، شرح: أحمد الجارم، وأحمد العوامري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988 .

3- الجاحظ أبوعثمان بن بحر، البيان و التبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1 ، 1979 .

4- الجاحظ أبوعثمان بن بحر ، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط8 ، 1998 .

5- الجاحظ أبو عثمان بن بحر بن ، الرسائل ،تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1988 .

6- الشهرستاني أبو الفتح محمد عبد الكريم،تح: محمد سيد الكيلاني، دار المعارف، بيروت، لبنان، 1980 .

7-أبو الهلال العسكري الحسن بن عبد الله ، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1 ، 1986

8- بطرس البستاني، قاموس المحيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1 ، 1998

9-أبو حيان التوحيدي، المتناع والمؤانسة، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، د-ت، ج119 .

10- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون، تح: درويش الجريري، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ط1 ، 2005 .

11- عثمان الحريري أبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن البصري، المقامات الأدبية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط4 ، 2003 .

12- محي الدين فيض السيد المرتضي الحسين الزبيدي الحنفي، تاج العروس، دار الفكر، د-ط، 1994 ، المجلد 4.

13- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرم ، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1 ، 1997 ، المجلد الثالث.

14- ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ، معجم الأدباء، تح: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ط1 ، 1999 .

ثانيا المراجع:

15- أحمد الطاهر المكي، دراسات في مصادر الأدب، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط8 ، 1999 .

16- آدم أمتز، في الحضارة الاسلامية في القرن الرابع، دار التونسية، تونس، 1986

17- باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي دراسة أسلوبية تداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1 ، 2001 .

18- بلقاسم الغالي، الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، دار ابن الحزم، بيروت، لبنان، ط1 ، 1999 .

19- جليل علي، الجاحظ رائد البيان العربي، حوس الدوالية، الاسكندرية، مصر، 2013 .

20- جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1 ،

21- جميل عبد المجيد، البلاغة والإتصال، دار الغريب، القاهرة، مصر، 2000 .

22- حسن شحاتة، الكتابة الاقناعية الحجاجية فكر جديد من النظرية إلى التطبيق، دار العالم العربي، مصر، القاهرة، ط1 ، 2012 .

23- أبوزهرة محمد، تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، د-ط، 1950 .

24- سعيد حسين منصور، بين الخاص والعام في أدب الجاحظ، دار الجامعة الجديدة، الاسكندرية، مصر، ط1 ، 2010 .

25- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، د-ط، د-ت.

26- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط8 ، 1980 .

27- صابر الحباشة، التداولية والحجاج مدخل ونصوص، الصفحات للدراسة والنشر، دمشق، سوريا، د-ط، 2008 .

28- ضياء الكعبي، السرد العربي القديم الأنساق الثقافية واشكالية التأويل، دار فارس، عمان، الأردن، ط1 ، د-ت.

29- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، القاهرة، مصر، د-ط،

30- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ، 2000 .

31- عباس حشاني، الخطاب والتداولية دراسة في انتاج ابن باديس الأدبي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2014 .

32- علي محمد سيد خليفة، تيار الشعوبية في أدب الجاحظ، دار وفاء الدنيا، اسكندرية، مصر، 2011 .

33- علي محمد علي السمان، متابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله أنموذجًا) دار الفارس، عمان، الأردن، ط1 ، 2010 .

34- عمر عروة، النثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه، دار القصبة، حيدرة، الجزائر، 2000 .

35- عبد الغاني عارف، منارة اللغة، الجذع المشترك الثانوي التأهيلي، جذع العلوم والتكنلوجيا، المطبعة الجديدة، الرباط، المغرب، 2007 .

36- فكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط2 ، 1878 .

37- عبد القاهر البغدادي، الملل والنحل، تح: البار السعدي نادر، بيروت، لبنان، د-ط ، 2008 .

38- الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تح: رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2 ، 1993 .

39- محمد السيد خليفة، جاحظ الدولة العباسية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، اسكندرية، مصر، ط1 ، 2011 .

40- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان مطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط1 ، 1994 .

41- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، دار أفريقيا الشرق، المغرب، 1996 .

42- محمد العويضة، الجاحظ الأديب الفيلسوف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د-ط، 1993 .

43- محمد بن إبراهيم عثمان، أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، مكتبة ابن القيم، الكويت، ط1 ، 2008 .

44- محمد جمال ماروت، الجاحظ مؤسس البيان العربي، الأهالي للطباعة، دمشق، سوريا، ط1 ، 2001 .

45- محمد سالم أمين طلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1 ، 2008 .

46- محمد صادق عفيفي، المدارس الأدبية، دار الفكر، القاهرة، مصر، د-ط ، 1971.

47- محمد طرابلسي، بحوث في النص الأدبي، دار العربية للكتاب، تونس، د-ط ، 1955

48- مزاري زينب، المناظرة في القرآن الكريم بحثا في الأساليب، دار علي بن زيد، بسكرة.

49- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتب الجديدة، بيروت، لبنان، ط1 ، 2004 .

50- نور الهدى باديس، دراسات في الخطاب نقد الأدبي، دار الدارس، عمان، الأردن، ط1 ، 2008 .

ثالثا المجلات والدوريات

51- باشا العيادي، "السجال في الأدب العربي أشكاله ووظائفه"، مجلة الأزمة الحديثة، الرباط، المغرب، عدد5 ، صيف 2012 .

52- حبيب أعراب، "الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر الاستسقاء نظري"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطبي للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد1 ، سبتمبر، 2001

53- رشيد يحياوي، "نظرية الأنواع الأدبية"،مجلة الفكر العربي، العدد76-77 جوان، 1990 .

54- عبد المجيد زرقاط، "تسميات كميت بن الأزدي، (حافز الحق الثورتين السياسية الاجتماعية والأدبية"، مجلة المناهج، عدد2 ، 10 ديسمبر، 2013 .

رابعا: المذكرات

55- ليلى جغام، الحجاج في البيان والتبيين للجاحظ، أطلوحة لنيل درجة الدكتوراء العلوم في علوم اللسان العربي، إشراف: محمد خان، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013 .

خامسا: المواقع الإلكترونية

56- http://all sevat.com.coment. php?a.25/01/2015.12:35.

57- http://educ.formactif.comt1685.20/04/2015.10;05.

فهرس الموضوعات

مقدمة.....أ-ب

مدخل: السجال المناظرة والحجاج في -فضاء المفاهيم.....5

1-تعريف

أ- لغة.....5

ب- إصطلاحا..... 7

2-المناظرة والحجاج والجدال والسجال..... ...9

3-السجال في تراث الأدب العربي 13

الفصل الأول: أشكال السجال في أدب الجاحظ.....16

1/ منازعة الخصوم.....17

2/ مناظرة الأكفاء والبلغاء.....35

3/ مفاوضة الإخوان.....44

الفصل الثاني: وظائف السجال في أدب الجاحظ.....50

1/ الوظيفة الأجناسية.....50

2/ الوظيفة الإقناعية.....62

3/ الوظيفة الإديولوجية.....68

خاتمة.....75

ملحق.....78

قائمة المصادر والمراجع..... 86

فهرس الموضوعات.....94

ملخص

موضوع هذا البحث السجال في أدب الجاحظ دراسة في الأشكال والوظائف، وقد قمنا في هذا البحث بتتبع أشكال السجال في أدب الجاحظ التي وردت في مؤلفاته ضمنت أشكالا مختلفة ومتنوعة مقاما ومذهبًا، من حيث الأطراف، لذلك كانت له أشكال هي منازعة الخصوم و مناظرة الأكفاء البلغاء و مفاوضة الإخوان فمنازعة الخصوم تهدف إلى التباري والتنافس وحب الغلبة، ومناظرة الأكفاء البلغاء التي تسعى إلى البحث عن الصواب والحقيقة قائمة على تكافؤ بين المتساجلين معرفيا، فيما كانت مفاوضة الإخوان تقوم على التعليم والتأدب وأطرافها بين المعلم والمتعلم تقوم على البحث عن المعرفة وتحصيلها، ومن خلال هذه الأشكال تبرز وظائف يؤديها السجال منها وظيفة توليد الأجناس الأدبية جديدة في النثر العربي و الوظيفة الإقناعية غايتها تحقيق المعرفة من خلال إبراز حكمة الخالق من خلال مخلوقاته، كل هذا كان من أجل نشر الجاحظ لمذهبه الإعتزالي و مبادئه للعقل و المنطق.

Summarize

The title of this research is “the see saw in el djahidh’s literature studying in formations and employments, and we detect in this research by following of see saw formation in el djahidh’s literature, which find it in his bublishors in different formation (dominators and doctrines) from the see saw extremes so, it has three formation. First, adversary’s disputant, second, analogous competent eloquent. Third, brother’s negotiations. Adversary disputant aimes to contending and rivalry and love of breporteney (winner), and analogous impotents elements, wants to check or research about right and truth, structuring on equalities between knowledge see saw, whirs, the brothers negotiation structuring on learning and educating (ethic), and it extremes between the trailer and the learner structuring on check about the knowledge and assimilate it, from these ideas which excrete the conviction employment the see saw excite it, like, the employ of generation of new literature gender in Arabic prose. And the conviction employ, it aimes is inquiry the knowledge from excrete the wisdom of the creator (allah) from his creation. All this ideas was for bullish segregated doctoring of el djahidh, and history arts for the intelligence and logic

ملخص المذكرة

يعد السجال مظهر من المظاهر القولية المميزة للخطاب وتفاعلاته، وقد تنوعت مجالاته واختلفت، وانتشرت في أجزاء كثيرة من عيون تراثنا الفكري عامة والأدب خاصة، فمثل مدونة ضخمة جديرة بالبحث والدراسة مما يدل على أهمية هذا الفن في الأدب الأدب العربي القديم، حيث شغل كثيرًا من مدونات الأدباء كتابًا وشعراء، وتفر أشكالًا وتلون موضوعات وأغراض، وإختلف مقامًا وسياق

ويعد الجاحظ مؤسسًا منظرًا له في جل أماته ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات:

-ما مفهوم السجال؟

-وما تجلياته في النثر العربي القديم عمومًا وأدب الجاحظ خصوصًا؟

-ما أشكاله ووظائفه؟

وللإجابة على هذه التساؤلات عمدنا أولًا إلى تعريفه لغة واصطلاحًا حيث يحيلنا مصطلح السجال في اللغة على معنيين أساسيين هما التباري والتنافس، ومجالين مختلفين هما الاستقاء والحرب هذا ما ذكره ابن منظور في لسان العرب قال: «السجال جمع سجل والسجل هو الدلو الضخمة المملوءة ماءًا وساجل الرجل باراه، وأصله الاستقاء هما يتساجلان أي يخرج كل منهما في سجله مثلما يخرج الآخر أيهما نكل فقد غلب».

كما نجد ابن منظور قد استدل بقول ابي سفيان في الحرب بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم « الحرب بيننا سجال ندال على محمد مرة ويدال علينا أخرى».

هكذا انتقل اللفظ من السياق الأصل وهو الاستقاء إلى سياق جديد يرتبط بالحرب.

أما تعريف السجال اصطلاحًا نجد أركيوني يعرفه: «أنه محاورة قائمة على إختلاف قد يبلغ الخصومة والحرب، ولهذا يخرج من شكل إلى شكل ».

فيما يرى الجاحظ أن السجال حرب كلامية تقوم بين أطراف هدفها المناضلة والمغالبة بينهم من خلال وصفه لواصل ابن عطاء: «فلم يزل يكابد ذلك [اسقاط الرأي من كلامه] ويغالبه ويناضله ويساجله... حتى انتظم محاولة» فيما يرى توفيق الزيدي أن فعل السجال يصاحب خطاب السجال أحيانًا.

إذن السجال هو حرب كلامية غايتها المناضلة والمغالبة بين أطرافها .

كما نلمس أن هذا الفن قد طغى بشكل كبير في تراثنا الأدبي عمومًا وأدب الجاحظ خصوصًا ولعل من أشهرها النقائض والمعارضات في الشعر، والمنافرات والمفاخرات في النثر، وقد تضمنت مصادر الأدب العربي القديم نماذج كثيرة لهذا الفن أهمها مصادر الجاحظ ،و كتاب الأغاني للأصفهاني ،و العقد الفريد لابن عبد ربه ،و غيرها كثير ،كما اننا نجد أن هذا الفن قد ظهر في الشعر السياسي في القرن الأول الهجري ، و من أعلامه مثلًا الكميت في الهاشميات ودفاعه عن أهل البيت وأحقيتهم للحكم والخلافة، ومن ذلك أيضا شعر الفقهاء والفلاسفة من أعلامهم أبو العلاء المعري في لزوم مالم يلزم

كما أنه برز هذا الفن في قصص الحيوان مثل كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ومن بين هذه المصادر التي طغى عليها هذا الفن وأشكاله بشكل أكبر، أمات الجاحظ التي كانت تتضمن جل أشكاله ووظائفه أولها منازعة الخصوم التي كانت تقوم بين أطراف غير متجانسة من حيث الدين والمذهب السياسي أو الكلامي غايتها التشنيع، والفلج على الخصم، وافحامه، هدفها التباري والتنافس وحب الغلبة بالانتصار لفكرة أو دحضها ومن أمثلة ذلك نلمس أهم نموذج كان بارزًا بشكل واضح في مقدمة كتابه الحيوان، التي قامت هذه المنازعة بين الجاحظ زمن عيب عليه طريقة تأليفه وموجه بين الجد والهزل وأسلوبه الساخر والاستطراد، فكان خصمه من أنصار الشعر ونهجهم المشافهة الذين عارضوا

الكتابة في عصره فيما يرى الجاحظ أن هذا النهج قد يشوبه بعض التزييف والحقائق وأن التوثيق للمعلومات هو السبيل الأمثل لحفظ الأدب العربي وايصاله للاجيال فكانت تشد بينهم المنازعة لحد الشتم والعيب والتكفير أحيانًا أخرى في بعض النماذج، وهذا ما نراه في المنازعة التي قامت بين الشعوبية والجاحظ حيث عابت الشعوبية على العرب لأخذهم للمخصرة في خطبهم ومحافلهم، وكيف رد عليهم الجاحظ وانتصر عليهم وذلك بتقديمه أدلة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، والأمثال والحكم.

فيم تعتمد مناظرة الاكفاء والبلغاء على تكافؤ بين المتساجلين تغلب عليها صيغ التفضيل ذلك مايعمد إليه كل مناظر بذكر محاسن حيوانه مع ذكر مساوئ حيوان الطرف الآخر يقوم هذا الشكل السجالي عند جلة شيوخ المعتزلة من أهل الحكمة تهدف إلى تصويب القياس الخاطئ والوصول إلى المعرفة الحقيقية المنطقية وهذا ما رأيناه بشكل بارز في المناظرة بين صاحب الكلب والديك أي بين المعبد والنظام والهدف منها أنها كانت تمجد العرب على الشعوبية بذكر خصال العرب كالكرم ودخول خصال جديدة عليهم كالبخل وذلك من خلال الحيوانات وجعلها براهين وأدلة يستدلون بها في معظم مناظراتهم.

فيم تتجلى مفاوضة الإخوان على انها تقوم على مبدأ متجانس من حيث المذهب وتختلف من حيث المعرفة، تقوم بين المعلم وتلميذه تعتمد على المحاورة والكياسة ومبدأ التعاون فهي شكل من أشكال الحجاج يقوم بين أطراف غير متكافئة معرفية وكانت تربطهم علاقة تواصل وتأدب منها تذاكر المسجديين في كتاب البخلاء في ذكر البخل وطرقه العجيبة يسقط هذا الشكل السجالي حب الغلبة والتنافس والفلج على الخصم، بل هدفه تمرين العقول للحصول على المعرفة.

حرص الجاحظ من خلال وظائف السجال على انها مكنته من توليد أجناس أدبية في النثر عربي في إطار أجناس ادبية قديمة، كالحجاج الذي حرص الجاحظ على إخراجه من دائرة الخطابة وجعله جنسًا قائمًا بذاته بتحديد أسسه ومبادئه، وجنسًا آخر ألا وهو

جنس المحاسن والمساوئ الذي كان له السبق في وضعه ونجده بارز بشكل كبير في كتابه الحيوان في ذكر كل طرف محاسن حيوانه مع ذكر مساوئ حيوان خصمه والفلج عليه.

فيم تتمحور الوظيفة الاقناعية أو المعرفية في أدب الجاحظ إلى تحقيق معرفة منطقية والبحث عن عظمة الخالق وحكمته من خلال الكون ومخلوقاته التي إعتبرها الجاحظ براهين مهمة يستدل بها لدحض خصمه، وحجج يستعين بها في جل مصادر للوصول إلى معرفة الخالق وعظمته من خلال توظيفه الحجاج فغاية الجاحظ من السجال تدل على التأثير والإقناع أكثر مما تهدف إلى الحقيقة والصواب، إلا إذا كانت الحقيقة ماذهبت إليه المعتزلة، وبهذا القول ينتقل الجاحظ تدريجيًا من البحث عن الحكمة عامة إلى الدفاع عن المذهب خاصة، مما يجعل السجال في كتبه وظيفة إديولوجية.

يوهم الجاحظ قارئه بأنه يسعى إلى كشف الحقيقة للغافلين عنها وبيان الحق والصواب، ولكنه في حقيقة الامر يسعى جاهدًا إلى نشر معرفة كلامية إعتزالية عامة وذلك بالترويج أفكار مذهبه الإعتزالي وتمجيده للعقل وذلك بطريقة ذكية لم يسبق إليها أديب قط من قبله، وذلك مزج بين الجد والهزل والسخف والباطل حتى لايشعر القارئ بملل وذلك بتشويقة في الوصول إلى ما يرمي الجاحظ إليه، وهو نشر مبادئ نحلته من خلال هذا الأسلوب وذلك لمحاربة الإلحاد وسعيه الحثيث على الإقناع بمقالات المعتزلة الدينية والسياسية و تمجيدها للعقل وجعلها الأمر الأساسي في التفريق بين الصواب والخطأ .

وفي الاخير مايسعنا أن نقول أننا أردنا من خلال هذا البحث الإشارة إلى أهمية السجال في الأدب العربي القديم وأدب الجاحظ خصوصًا وعلى أنواعه ووظائفه